كأنها كذبة نيسان!..

النهار صحو دفيء والحساسين تزقزق في سلام والشجر يزغرد بـالزهر. وقفـز زرزور مـنقط بالبياض، والتهم دودة خضراء هجرت باطن الأرض وأخذت تتمطى تحت عين الشمس.

كانت حنان تلتقط الهندباء التي نبتت على ضفاف الساقية وتفكر في الليلة الماضية.. لـم يحـضر ماجد، وأنها تطوي النفس على جرح ووحشة. سافرت خالدة وسافر والدها ليطمئن عليها فـي بيتهـا الجديد، ورفيق انطلق للتدريب في المعسكر المجاور الذي أخلاه البريطانيون المنـسحبون. وهـاني ونادر أخذا فطورهما وذهبا ليلعبا في حقل تين مشرف على الطريق مع أبناء الجوار.

كانت أم غالب بميدعتها قرب نافذة المطبخ تتناول ما تجمعه حنان وتفرمه وفجأة سـمعت هـدير مصفحات على الطريق ودوي الرصاص فهتفت:

- الأولاد!.

أما حنان فألقت ما بيدها وجرت إلى الباب الخلفي داخلة إلى الدار.

- صندوق المتفجرات في الغرفة الأمامية!..

- ماذا تفعلين؟..

- يجب أن أزيحه من مكانه..

- هل أنت مجنونة؟..

- إن رصاصة واحدة تخترقه من النافذة المقابلة للطريق تنسف دارنا والبيوت المجاورة.

وركضت حنان إلى مقدمة البيت فلحقت بها أمها..

- لا تقفي.. ازحفي زحفا.. إنهم يضربون المنزل!..

- النوافذ كلها مفتوحة.. نريد أن نستقبل نسائم الربيع، يا للنهار!..

وأخذتا تحبوان لتفادي الرصاص الذي أخذ ينهمر على المنزل. وهشمت رصاصة زجاج صـورة تعلو صندوق المتفجرات بذراع، واستقرت في الحائط. وأجفلت حنان وفر لونهـا، وأطبقـت بيـدين مرتجفتين على الصندوق تجره من ناحية وتسحبه أم غالب من الناحية الأخرى.

- إنه بحاجة لأيدي رجال.. ستر الله أن لم يصبه الرصاص.. ألم تسألي غالب إلى متى نبقيـه فـي بيتنا؟..

- هل رأيته بما فيه الكفاية حتى أسأله؟..

وأخرجتا الصندوق إلى الردهة ووضعتاه في زاوية، ولا تزال المـصفحات تهـدر فـي الخـارج والرصاص يئزّ.. إنها قافلة طويلة وما يدري أحد أهي عابرة ترهب أم مهاجمة، أم تحمل النجـدات للمستعمرة في الجنوب..

وما كادت أم غالب تطمئن على الصندوق، حتى اكفهرت وساوسها على أبنائها.. خرجتا إلى البـاب وبرزت نسوة من الدور المجاورة يسألن ما الخبر، ومر قروي حلاب على حماره، ولكن أحدا لم يكن يدري على وجه الدقة ما حدث.. كان هناك رجال يركضون تجاه حقل التين، ولم يمض قليل حتـى انجلى الخبر.. قيل كان هناك قتلى وتحدثت قروية عابرة أن ولدين أصيبا، وأن عدد القتلى يتجـاوز الثمانية. وانهارت قوى أم غالب.. هل شاهدت الولدين؟.. ماذا يلبسان؟.. قروي، مـدني، سـروال، بنطلون؟.. كانت أسئلة أم غالب تتهافت عليها فتجيب بما أهاج شكها وكأنه يقين. واعتلجت بين جنبي أم غالب الحسرات، وضربت كفا بكف، وغمغمت مختلجة الشفتين : "بعينهما، أو أحد منهما.. منيتهما قادتهما للعب في هذا النهار المشؤوم"

وأجهشت بالبكاء وعصر قلب حنان مخاوف حبست أنفاسها، وأخذت تدافعها بجهد عنها:

- أمي، كيف تجزمين هكذا وتسمحين للذعر أن يذهب بك؟..

ولكن ذهن أم غالب كان مشغولا بتلك الفكرة الواحدة التي استولت عليها، وهي تحملق في القروية دون أن تراها، وقد ارتعشت شفتاها في حركة يائسة كأنما تعذبها نوبة اختنـاق. وازرق لونهـا ثـم شحب، وجلست عند البوابة وذقنها إلى صدرها وأخذت تصدر أنينا مكتوما.

انبعث من بعيد في اتجاه القرية أصوات إطلاق بنادق متفرقة، فأسرعت حنان إلى الداخل وحملـت معها أدوات الإسعاف التي زوّدت بها في المركز.. لم تتلكأ ولم يستول عليها القلق بشكل يشل فعاليتها كما يفعل مع أمها، فهناك احتمالات، والقروية ليست واثقة من شيء مما تقول. ولكـن الكآبـة لـم تفارقها.. قالت وهي تظلل عينيها براحتها وتحدق باتجاه الحقل لعلها ترى أخويها عائـدين فيخيـب أملها.

- إنني ذاهبة لأرى.

ورفعت أم غالب رأسها وقالت بصوت محنق واهن:

- أين تذهبين وتعرضين نفسك للخطر!.. ألا يكفي أن البيت خلو من إخوتك؟..

- قد يحتاجون إلي هناك.

- إن نفذ فيهما القضاء فلن تغني شيئا، وإن نجوا عادا بمفردهما.

- إنني متطوعة في الإسعاف.. يجب أن أذهب.

ورفعت الحقيبة الصغيرة التي أودعت فيها ما تحتاج إليه وأسرعت تعدو دون ان تلتفـت، أو تـرد على نداءات أمها لها بالرجوع، وتنهب ارض الشارع في اتجاه الحقل.

تعالى هتاف طيور السماني المتشوق في مدى خضرة لا يبين له نهاية، وهسّت الريح فـي أوراق الشجر، ومال الحشيش النامي وشقائق النعمان متأوّها وشعشع في المدى الفسيح زهر البابونج، وهدر من بعيد خبط كئيب لقنبلة ناشزا لا ذوق فيه. وأحست حنان أن انفعالات الخـوف والقلـق والحـزن

غريبة عليها. فالحياة حولها من القوة والإصرار والبريق بحيث لا تصدق أن المـوت ينعـب علـى مسافة غير بعيدة، ويجال الصباح الغض الآسر بالسواد.

وبرز لها من المنحنى صبيان عرفت فيهما أخويها. كانا يرقّان على الطريق وأسرعا العدو حـين شاهداها، وشدت نحوهما وقد اشتد لهاثها في غمرة ابتهاجها، وضمتهما معا إلى صدرها وقلبها يـدق بعنف، وقالت لهما خلال أسنانها التي أخذت تصطك انفعالا:

- أسرعا إلى البيت فتطمئن أمنا.. إنها في خوف مبرح عليكما. ولكنهما كانا منفعلين لما جرى، وأخذ أحدهما يقاطع الآخر فارغ الصبر ليحدّث بما عنده.. إن رفيقـين مـن رفاقهمـا أصـيبا.. خمـيس وشحاذة..

لم تكن تعرف الأول وشكّت بهوية الثاني.

- شحاذة ابن أم شحاذة؟..

- ليس غيره..

ولم يكن من السهل أن تعرف مدى خطورة إصابة الطفلين وقالت لنفسها:

إن من عادة الصغار أن يهوّلوا.

وطلبت من الصغيرين أن يسرعا إلى البيت وأخذت تعدو بأقصى سرعتها وهي تصرّ على أسنانها مغيظة:

- لا يريدون أن يقطعوا الطريق!.. استسلموا للأمن الكاذب واحتجب عنهم الخطر وكأنهم ليسوا فـي حالة حرب.

بلغت الحشد فأوسعوا لها. كان طفل في الثامنة ملقى على الأرض ورصاصة اخترقت رأسه وخرج مع الدم القليل النازف بعض نخاعه. واعتراها الخوف كأنما تدلج في أجمة رهيبـة.. أخـذ الطفـل

يحشرج وهو غائب عن الوعي ووريد في رقبته ينبض بعنف وإحدى عينيـه مغمـضة، والأخـرى مفرجة ساهية.. وقد كسا وجهه شحوب شمعي.

حملقت به وفي روحها يمخر عباب بحر من الظلام.. لم تكن قادرة على أن تفعل له شيئا.. كـان واضحا أن الحالة خطيرة.. سألت بانفعال وهي تتفحص جرح شحاذة:

- ألم تبلغوا المستشفى؟..

وأجابتها فضة التي كانت بين الحشد:

- راح سليم للمركز؟

كانت إصابة شحاذة طفيفة في كتفه، فأوقفت له حنان النزف وضمّدته وهو يبكي بـأعلى صـوته، ويتضرج وجهه الأسمر المبلل بحمرة قانية، وتتلامع عيناه الدامعتان كزبرجدتين مصقولتين. وداعبت حنان حلقات شهره الكستنائي مشجعة فهدأ.

كانت الأعصاب مستوفزة لما حدث. ووغر صدر الجميع على أبي سالم الذي أبى قطع الطريـق، وتيقّظ فيهم الشعور بالخطر، فالعدو ينتحيهم بالمكروه ولو تجنبوه ويكيد لهم ولو لم يبدأوه الأذى. ولم تلبث أن جاءت أم الطفل المحتضر وهي تعول وتلطم صدرها، وانحنت فوقه تناديه ولكن الصبي بقي يلهث وعينه مفتوحة كالزجاج.. كانت الأم شابة ولم تجرب موت طفل، وأخذت القرويات يخففن عنها كل واحدة بما تحمل من مصائب وجروح، فالموت عادي بالنـسبة إلـيهن، كثيـر الزيـارة، كثيـر الضحايا.. تعوّدن عليه ولكن أم خميس لم تكن لتستطيع أن تسامح الموت على أنه انتقى ابنها، مـن دون الجميع. خرج يلعب ويقطف الفول في غفلة عن عين الناطور.. قالت له أمه بعد تمنّع: إمـسح أنفك ولا تلمس بيديك المتربتين عينيك لئلا ترمد.. حليب التين حامي على العين، ولا تسرف في أكل الفول فيصيبك ما أصاب ابن أم إبراهيم الصغير..فوّل..

ومسح أنفه بطرف كمه وضحك وركض نحو البساتين.

- ما قلتلكش يا خميس يا بني ما تروحش الكرم.. عزرائيل نده لك يا حبيبي؟..

والتفتت إلى حنان وهي تنتحب:

- إعملي له شي أبوس إيديك، الروح فيه.

- يا ريت يطلع بيدي أقدم روحي.

قال قروي:

- ما فيش دم نازف.. الرصاصة برأسه.

- ياريت الرصاصة خرقت رأسي.. بتقولوا بيعيش، بيعيش؟..

- الأعمار بيد الله.. لا تقطعي أملك يا أم خميس.

أخذ الصغير يشهق فرفعت أمه بخفة رأسه وتطلعت بجزع إلى من حولها متسائلة، أهي حـشرجة الموت التي يتحدثون عنها؟..

- ايش هاد؟..

ولم ينبس أحد ببنت شفه.. كانت العيون ترى أن حالة الطفل خطيرة، ولكن من يستطيع أن يكتشف إرادة الله فيه، ولماذا يدفعون الأم إلى اليأس قبل الأوان؟..

قالت قروية:

- ملعون أبو سيارة الإسعاف.. يموت الواحد وما تصلش.. وهتفت أم خميس:

- ما به؟..

- لا تخافي إنه يسعل.

- ما هذا الذي يتقيأه؟.. الفول الذي أكله.. عين الناطور صابته.

ومسحت بيدين مرتجفتين ما تلوث من وجه الطفل.. كانت اللوعة تضرمها كحزمة من قش.؟

وقال رجل طويل القامة نحيل الجسم وهو يصرّ على أسنانه:

- اللي مش مسلح يتسلح.. يا ناس، هدول مش مصلين عالنبي..

وفرك إبن فضة الصغير عينيه المصابتين بالرمد الربيعي، إذ وقع عليهما الذباب فهمست فضة في أذن حنان:

- عندك شي قطرة حمرة لها الولد؟..

- على عيني.

كانت عينا حنان عالقتين بالطفل المحتضر، وأمه التي تنوح قربه وقلبها يعصف فيه الغيظ والحقد.. لا مبرر لهذا على الإطلاق.. مجرد غدر لنفوس مطبوعة على الأذى والجبن والنذالة.. ومـن بعيـد جاءت أم شحاذة تهرول وتعول ومعها زوجها وجورجيت:

- يا عدرا، يا عدرا، يا أم المسيح شحدت إبني منك، شحاذة حبيبي، شحاذة حبيبي وينك؟.. الله ينـتقم منكم يا خونة المسيح!..

وطمأنها الجمع على سلامة إبنها، وبرز شحاذة وهو يعول، وأخذت تقبل شـعره ووجهـه ويديـه الاثنتين.

وصلت سيارة الإسعاف وتحلّقْ حولها جمهور يكابر على اللظى.. كان هناك قتلى وجرحى. ونزل سليم حمدان، ثم هبط رجلان يحملان محفة. وتضخّم نحيب أم خميس وقد وقع في روعها أنهـا لـن ترى ابنها مرة أخرى. وحمل الرجلان الطفل بعناية، وأسندت حنان رأسها إلى راحتيها. أما شـحاذة فإن والده أبى إلاّ أن يصحبه، ولما رفض السائق، تخاف لكي يذهب في سيارة عابرة، ومضت سيارة الإسعاف. واعتصب الناس حول سليم يسألونه عن هوية المصابين الستة فعدد لهم الأسماء، وهاجـت

النفوس مستنكرة ساخطة، وعوّل الرجال على أن يقطعوا الطريق، ويستحكموا في منزل أبـي سـالم المشرف شاء أم أبى.. ولكن أبا سالم هدد بأن يستعين برجال الشرطة. فاختيرت نقطة أخرى قريبـة من بيت أبي غالب، وبثت الألغام وعرّض الطريق بالأسلاك الشائكة. وكمـن شـباب مـن القريـة متناوبين وراء الاستحكامات مستعدين للمعركة.

* * *

كان صباح اليوم التالي ضبابيا والريح دافئة، وفي الجو حلاوة مثيرة يفوح بها هواء الربيع الطلـق. وأوراق الشجر زمردية مغسولة برذاذ الليل تخلفت عليها قطرات ماسية وشـع بـين الـشجر بقايـا البرتقال في الأعالي ليحلو في ضوء شمس نيسان ويكون مؤونة للعائلة لأشهر تالية. وظهرت البراعم الجديدة للزهر قبل أن تنفجر في مظلات لؤلؤية مسكرة العبير.

الطبيعة تغمغم بألسن العنادل، وصدور الناس تغمغم حقدا، وتبوح أزيز رصـاص وهـدير مـدافع وخبط قنابل. وتساءلت حنان: هل الحرب قدر؟.. هل العدوان قدر؟.. لماذا التـاريخ لـم يـسجل إلا قصص الغزاة والفاتحين؟.. هل العالم يتطور نحو النظام والانسجام، وما تراه من فوضـى وهـدر للإنسان رواسب همجية؟ أم أن هذا من طبيعة الحياة وهو الدرب الذي لا مفر منه؟.. ولكـن لمـاذا يكون الإنسان إما قاتلا أو مقتولا؟.. إنها نفسها اليوم لا تجد حرجا أن تشترك فـي اللعبـة الدمويـة المجرمة. لماذا كانت تود لو تمزق ذلك الحجاب الصفيق الذي يحول بينها وبين معرفة الـسر الـذي يجعل الإنسان لا يتحرّج من القتل الجماعي، حتى لو كان في أحوال أخرى يتحرّج من دهس نمله؟. تحدث الشعراء وتساءلوا قبلها وحاولوا سبر غور الأشياء، ووقفوا مثلها في ارتيـاع وإشـفاق أمـام المصير الإنساني. ولكن أحدا لم يقل كيف وما هو الطريق لحقن الدماء.. وما قيمة حقن الـدماء دون عدل؟.. انقطع اللجام عن الوحش الراقد في أعماق الإنسان حين فشل العدل أن يروّضـه. وهـؤلاء الذي نصبوا أنفسهم في "محكمة العدل" فجّروا الكراهية في الضمائر يوم أبدلوا حكم الضمير بحكـم الغريزة في قرارهم. ولكن لماذا يحدث هذا؟.. ما هي القوة التي تسيّر الهيئات والمحـاكم الدوليـة؟ وتجعل سادة العالم يصدرون أوامرهم المجحفة بدم بارد؟.. أسوأ الشعوب شعب يعيش علـى غيـر أرضه. إنه يربط مصيره بكل قوى الظلم والعدوان، ويحتكم للسيف، فهل كان السيف دائما على حق في حكمه؟.. حين تشتبك الرؤوس والأيدي ينتصر الوحش الأحدّ مخلبا وناب ـا، ولا تنتـصر القـيم

الإنسانية.. فهل يجرّد الوحش من قوته من أداته، من سلاحه؟.. هل السلاح هو الشر؟.. الشر أبعـد غورا. وأقسى أنواع الشر ذلك الذي لا يجد الإنسان سلاحا يقاومه به. أما حين تشهر الغواية والطمع سلاحها، فمن النذالة أن يغمد الحق سلاحه. وإن وجد تبريرا لذلك لا يكـون إلا هالكـا.. وهزيمتـه مزدوجة: تجاه نفسه وتجاه العدل الإنساني. وجريمته مزدوجة: تجاه نفسه وتجاه المصير الإنساني..

جاءت فضة مع ابنها الأرمد تحمل قطرة حمراء، فغسلت له حنان عينيه بالشاي وقطرت له وهـو خجل طيع لا يشكو ولا يتذمر. قالت فضة: بيخجل منك، ما بيحكي ولا كلمة.

وأردفت:

- سليم مستحكم هون من نص الليل.. شاري بارودة، بس لسّة ما تعلم مليح عليها.

- ليش ما يروح مع رفيق.. عم يدرّبوا في المعسكر.

- سليم بيفهم عالطاير.. يوم واحد بيتعلم.

كانت بادية الفخر بزوجها "شاطر، فالح، بيطلع اللقمة من فم الأسد." وابتسمت حنان.. كان الزوجان في عنفوان الشباب، يليق أحدهما بالآخر.. فهي فارعة القامة نحيلة ذات وجه صغير جميل التقـاطيع ولها أسنان منتظمة ناصعة، وزوجها ممشوق كالحور ذو وجه أسمر وعينين تشتعلان فطنة وذكاء.

جاء بعد قليل يسأل عن رفيق ليسلمه دوره في الحراسة.. فلقد كان كل ذكر بالغ خاضعا لأن يكون حارسا في الليل أو في النهار. وكان يرتدي بزة عسكرية من مخلفات الجـيش البريطـاني ويتنكـب بندقية، ويتمنطق بحزام الفشك. وتلامعت عينا فضة وهي تتأمل زوجها بفخر في بزته. قالت مداعبة:

- ياسليم ما بينقصك إلا شوية رأسمال بتصير زينة الرجال.

قال متغاضيا عن تعليق زوجته:

- الله يجازيهم. أعطوا اليهود الدبابات والسلاح والمدافع وتركوا لنا شراطيطهم القديمة!.

- شعرة من ذقن إبليس نعمة. أحسن من جاكيتتك اللي كان طالع كوعك منها.

وذكر سليم أنه كان بين المخلفات متاع لمّا يبلى بعد، اقتسمه أهل الضيعة كل حسب شطارته وطول لسانه وقوة عضله. وغبط نفسه أن غنيمته كانت لا بأس بها. قال لرفيق الذي خرج لتوه ولا يـزال يمضغ لقمة من فطوره الذي تناوله على عجل في المطبخ:

- اللي بيخجل رايحة لحيته. تخانقنا أنا وابن عمي على هاد. ما عرفت إيش هو.

كان يمسك بيده شيئا مدورا لم يعرف كنهه.

- هذه قنبلة يدوية!.

- آه حظي شاطر. مليح ما تركتها لابن عمي.

- بتعرف تستعملها؟.

- لا،علمني كيف.

- انتبه، تمسك بها من هنا لئلا تنفجر بك..

وأخذ يدربه على استعمالها، ثم تفحّص بندقيته وسأله عن ثمنها:

- مائة جنيه أي بالله!.. صار السلاح مثل الذهب.

- اشتعل السعر من خمس وعشرين الى مائة.. المعركة صارت تجارة!.

- مرتي القديمة بنت حلال قالت خود يا سليم تحويشة العمر. ما كفوش بعت البقرة ما حيلتي غيرها.

وامتعضت فضة إذ مدح سليم زوجته الأولى، ولاحظ زوجها استياءها فقال بلهجة مداعبة مؤنبة:

- برمت بوزها! يعني مثل أمك بتغاري منها؟.. تفرجوا عالنسوان قديش قليلات عقل.

لم تجد فضة الفرصة لتجيب. انتفض الجميع لسماع هدير قافلة تبعها انفجار ثم زخّ من الرصـاص قريب.. وأسرع رفيق وسليم للانضمام إلى المقاتلين بينما عطفت حنان وفضة وابنهـا إلـى الجهـة

الخلفية، وانضم إليهما نسوة من الجوار، وأم غالب وابنيها، وأطفال وفلاحات عابرات وأخذن يهللـن بالأدعية.

كانت الشمس ساطعة تضيء الكون وتوحي بالسلام والأمن وبدا كل شيء كأنه منتزع من شـريط سينمائي لا يبعث على الرهبة. وعجبت حنان أنها لا تشعر في أعماقها بشيء من الذعر، ولـم يكـن يبدو على النسوة الهلع، وأخذ الأطفال يتراكضون بين أمهاتهم، يلحق أحدهم الآخر وكأنما ليست هناك معركة على بعد أمتار. وجذبت فضة إبنها الذي كان يطل من طـرف البنـاء وصـفعته فـأعول، فالرصاص يئزّ في الفراغ بين البساتين، وخشيت عليه من رصاصة طائشة ثم أخذت تمسح لـه مـا سال من أنفه وتراضيه.

ولم يلبث أن ظهر سليم من خلف البناء فهتفت به زوجته مستنكرة:

- ليش رجعت يا خايب؟..

- فأجابها منتهرا:

- خيبة تخيبك!. بدي تنكة كاز. راحوا ثلاث مشاط فشك عالفاضي.

قالت أم غالب:

- أنا عندي.

ودخلت إلى المطبخ. وتحلقت النسوة حوله يسألنه عما يجري ولكنه لم يبل ظمأهنّ بكلمة شافية:

- قديش كتيرين غلبة! هم في المصفحات ونحن وراء كومة الحجارة، يضربوننا بالنـار ونـضربهم بالنار. فيها سر؟..

وملأت أم غالب صفيحة كاز من برميل كانت تضعه قرب الباب الخلفي، فتناولها سـليم واختفـى خلف البناء دون أن يفهم أحد ما الحاجة إليها.

وابتدأ القلق يتسرب إلى نفوس النسوة مع اشتداد تبادل النار، وعلت من الحشد جلبة، وهـن بـين منتهرة طفلها وبين مهللة بالدعاء. ورفعت حنان رأسها إلى السماء. كانت غمائم بيض تطفـو فـي جلال عبر الزرقة الباهرة وفجأة انطلق صوت فضة في زغردة حماسية على نغم زغردة الأعراس، وأمسكت غيرها بطرف النغم لتبدأ زغردة أخرى.. كن يهدهدن قلوبهن، ويحولن قلقهن إلـى لهـب الحماسة، وخُيل لحنان أنها تسمع صوت المرأة العربية عبر الزمن في لحظات الصمود. لقد ذكـرت دورها بطريقة عفوية فأخذت تعزز غريزة الحياة والنصر في رجلها، كان صوتا بدائيا واقعيا نقيا لا يشوبه ذلك القلق الإنساني المدمّر للإرادة الذي يعتلج في نفس حنان، ويجعل قلبها يعول للإنسان أخا أم عدوا.

هتف صوت من وراء الاستحكامات:

- إبعثوا بنت أبي غالب. فيه مجروحين.

وخفق قلب حنان. لماذا لم تملك تقديرا مسبقا للأمور وتعلم أنه قد يقع عليها عبء الإسعاف فتهيـئ نفسها جيدا؟..حتى صندوق الأدوات لم تضعه في مكان قريب تحت متناول يدها، بل في غرفتها في الطابق العلوي، ورفيق أقفل الباب الخلفي حيث أودع في الممر صـندوق المتفجـرات. وعليهـا أن تصعد الدرج الجانبي المحفوف بالخطر وتكون معرضة للإصابة في كل خطوة، ولكنهـا لـم تفكـر وركضت. وأزّت رصاصة من جانبها وصفرت أخرى من فوق رأسها وسمعت أصواتا تناديها:

- إرجعي.. إستلقي على الأرض!.

واستلقت على الأرض.. وتقدم منها رجل ملثم بكوفية خرج من خلف كومة الحجارة:

- أين أدوات الإسعاف؟..

- في البيت في الطابق الأعلى.

- مستحيل أن ندعك تصعدين الدرج. المعركة أمام البيت.

- ماذا أفعل؟..

- إرجعي إلى خلف الدار: تصعدين من النافذة.

وأحضر الرجل سلما من الجوار ولكنه كان أقصر من أن يصل إلى النافذة، وطلب من حنان أن تصعد ولما أصبحت في أعلاه نبهها أن تتمسك جيدا ورفع السلم حتى أصبح بمحاذاة النافذة. فصعدت.

كانت نافذة الغرفة مفتوحة، وشاهدت حنان على يسارها مصفحة تحترق، ورجل يبتعد عنها ويزحف نحو المصفحة الأخرى. كانت لحظة خاطفة أسرعت بعدها الى النزول وهي تحمل الصندوق، ولما أصبحت على ارتفاع قامة تناوله الرجل منها، وقفزت الدرجات ولما تتناهى، ففكت قدمها وهوت على حجر كبير وراحت ترج قدمها وتشدها بوشاح صغير تلف به رقبتها. إنه ألم لا يطاق ولكنها كاتمت ألمها وراحت تزحف ويداها ترتجفان، وقد تبضع العرق البارد من بصيلات شعرها لما تعاني.

ورافقتها فضة التي كانت تتحرق شوقا لمشاهدة المعركة عن قرب وزحفتا معا حتى جاوزتا خطر الأرض المكشوفة، وأصبحتا خلف البناء الثاني قرب الاستحكامات فنهضت حنان تنقل الخطو وتحتمل الألم الحاد لقدم أفكّة.

كان الجرحى أربعة حملوا إلى غرفة خالية في الطابق السفلي من فيلا أبو سالم، وإصابتهم طفيفة، وأسعفت حنان اثنين منهم ولما اقتربت من الثالث تسأله عن موضع جرحه صاح باستنكار:

- ما خلّيش بنية تشوف عورتي..

كان مصابا في فخذه وهو يضغط على جرحه بيده المشعرة وقد بضّ من أصابعه الدم.

قالت حنان:

- لا تضع وقتا: أرني إصابتك.

وأجاب بعناد:

- لا وحق الكعبة.

وصاح به أحد الرجال الذين أتوا به:

- هذه أختنا بعهد الله.

- لا أريد.

- بتموت إن استمر النزف.

وأشاح بوجهه وقال بسذاجة:

- أموت وما خليش بنية تكشف علي.

وطمأنته حنان:

- سأقصّ فقط سروالك مكان الإصابة ليستبين الجرح.

وصاح بذعر:

- ويتلف سروالي!..

وضحك الرجال. ولم تجد حنان ما تفعله إزاء إصراره وتشبثه بالرفض إلا أن تطلب من أحدهم أن يقوم بإسعافه، وأرشدته لما يفعل بينما راحت تسعف الرابع.

شربت حبتي إسبرين لتسكّن ألمها. كانت المعركة لا تزال دائرة وقد حمي وطيـسها، وأصـبحت عودتها مجازفة. وأرشدها أحدهم إلى مكان أمين خلف كومة حجارة وراء الاستحكامات تشاهد وفضة المعركة.

كان رأسها يدور واستلقت خلف الحجارة تبص إلى الطريق وغاص قلبها بين جنبيهـا إذ شـاهدت القتلى قرب المصفحة. كان لأحدهم شعر أحمر يتوهج في الشمس. وهدر خبط كئيب لقنبلة يدوية ولم تعرف حينها ما حدث. وعلمت بعد ما جرى وكيف جرى. مرت قافلـة أخـرى للأعـداء، وحـين اعترضت الأسلاك المصفحات الثلاثة الأولى وهي تدير مدافعها الرشاشة إلى المنازل، اندفعت الأولى بأقصى سرعتها تحاول اقتحامها فانفجرت الألغام، وتعطلت وراحت تجرّ نفسها حتى توقفـت قبالـة المنزل، على أبعاد مختلفة ثم ابتدأ تداول الرصاص. ولكن الرصاص لم يكن يخترق جدار المصفحة فانبثق في ذهن سليم خاطر حرقها.

أدركت حنان ما جرى بشكل غامض. إنها المصفحة التي شاهدتها تحترق.. لقد تركهـا أصـحابها خوف الاختناق فصيدوا واحدا إثر الآخر، وترامت جثثهم على حافة الطريق. واعتمدت حنان رأسها بين راحتيها. وبدا لها الأمر حماقة كبيرة. أن يعيش الإنسان منذ الأزل بين معتد ومعتدى عليه وراد للعدوان، لم تكن كآبتها اليوم بأقل من كآبتها أمس للطفل المحتضر.

وكفت المقاومة من جانب الأعداء، وتهافت الرجال نحو المصفحة ليجردوها من السلاح والغنـائم، وكان يحدث بينهم شجار. ولم تنتبه حنان لفضة وقد انسلت لتأخذ نصيبها من الأسلاب.

وجاءت مصفحة بريطانية وانتشلت القتلى والجرحى وأنقذت من بقي على قيد الحياة في المصفحات الأخر. وجالت حنان بعينيها تبحث عن رفيق فلم تره. وتريثت بالسير نحو المصفحة. وقيل لهـا أن المعركة دائرة على طول الطريق وأن الثوار قد اشتركوا فيها وأنجدوا القرويين.

كانت المصفحة قد أفرغت مما فيها بلمحة عين وبدت كأنها درع سلحفاة كبيرة نهـشتها الـصقور وقذف بها البحر إلى الشاطئ. وكان هناك أشياء مبعثرة قد اختلطت بالوحل ونضحت بالـدم، كتبـا وعلب بسكويت وألعابا. وكان الرجال أوزاع مستبشرين لما كسبوه من سلاح. فقد كان هناك مـدافع

برنات وستينات. وأخذت حنان تجوس في قلب المصفحات الفارغة وتنظر إلـى الرصـاص الـذي وخض سطوحها ولم يصبها إلا بالخدوش. ونظرت مليا إلى الدم وفلذ من لحوم بشرية مشعرة بداخلها فغثيت نفسها.

وجاء الصحفيون والمصورون للاستفسار والنظر إلى آثار المعركة ولالتقاط المـشاهد، فانـسحبت حنان. وشاهدت فضة تحمل مدفعا كسبه زوجها، وقالت ووجهها مشرق بالفرح:

- والله سليم يستاهل تنين. خاطر بنفسه مرتين. حرق مصفحة وألقى قنبلة في الثانية.

- القنبلة التي حصل عليها من مخلفات الجيش البريطاني؟

- هي بذاتها. الله حط بقلبه يتعلم عليها.

ولما بلغت المنزل أخذت تزغرد:

- بشارة يا نسوان.. انتصرنا.

وزغردت النساء وأردفت فضة:

- شوفوا سليم شو كسب!.. هاد واحد ومعه كمان واحد.

وأحاط بها النسوة يشاهدن المدفع بإعجاب. كان جديدا، ولم تكن نظراتهم تخلو من بعض الغيرة، إذ هبطت على سليم ثروة مفاجئة يستحق أن يغبط عليها.

سألت أم غالب حنان بقلق:

- شفتي رفيق؟..

فأجابت بالنفي. وقلقت الأم فقالت حنان وهي تصغي إلى تجدد النار عن بعد:

- الظاهر أن المعركة مش منتهية تحت.

وجمع الرجال أشتاتهم وركضوا إلى الجنوب. وسألت فضة زوجها الذي جاء يأخذ منها الرشاش:

- وين رايحين؟..

- ننجد الثوار.. اشتعلت معركة أخرى تحت.

وهتفت النسوة:

- مع السلامة يا رجال.. الله معكم يا رجال!.

والتفت الرجال ولوحوا بأيديهم وبنادقهم مشرعة إلى أعلى. وأحست حنـان بقـشعريرة تجتاحهـا وبقلبها يقفز ويصرخ خلفهم. من الذي يدير عجلة مصيرهم؟.. وماذا تخبئه لهم الحياة تحت وشـاحها المبهم، إكليل غار أم خنجر؟..

كان الإنتصار ساحقا على طول الطريق وعاد الرجال متهللين مبتهجـين واثقـين مـن أنفـسهم. واشتعلت الحماسة بالأهالي، وانضم كثير من الشباب إلى الثوار.. كسروا فجأة لجام التهيب وانطلقوا لا يلوون على شيء، وتفجرت نفوسهم بالفرح وانفتحت القبور المغلقة في ذواتهـم. كـل الجـروح الغائرة من أيام الظلم والجوع والسوط، كانت تبحث عن بلسم لها في جرح كبير. لعل اللهب والنـار يحملان الحرية والعدالة وكرامة العيش!. لعلهم يتذوقون بعدها أفراح شبابهم واستقلالهم. دميت أيديهم البشرية التي تشق صدر الأرض لتطعم كل الغرباء، فلا يبقى لهم إلا الذل وأكواخ الطـين. كبـرت قلوبهم فجأة وهم خلف المتاريس. لا يريدون الاّ سلاحا. يغمضون أعيـنهم ويـصغون إلـى لعلعـة الرصاص فيبتهجون كأنما يصغون إلى شدو الحساسين. إنهم يرفضون أن يبحثوا عن نجاتهم بالفرار كما بحث عنه الساسة الذين طالما شنفوا آذانهم بحلو الحديث عن الوطن. وكما بحث عنـه التجـار والسماسرة الذين عقدوا الصفقات المريبة مع الشيطان لينحتوا قصورا لأعـدائهم. كـانوا ملتـصقين بالأرض العطشى التي تطالبهم بالدم، وبفلذ الأبناء، ولم يكونوا من قبل قد شاهدوا دما ولا جثثـا. دم البرتقال وحده كان يضيء لهم بين البحر والسماء، وجنة الأرض الملفعة بأسرارها تبعث أمامهم في

الربيع موجا اخضر. الأرض التي حبلت بكل الأعاصير، الأرض التي صرخت على مر العـصور من وطء أقدام الغزاة، كما تصرخ المرأة عند المخاض، وأنجبت قيم العدالة البشرية. كانت مطالبـة مرة أخرى أن تنتصب في قلب العالم تحمل ميزان العدالة بيد جبارة ثابتة، وتصهر الموازين البخسة من جديد. ولكنها كانت ضائعة مشتتة تبحث بأعين زائغة عن ميزانها فلا تجده، عن موازينهـا فـلا تجدها، عن أعصابها فتخونها. في ظلام ليلة حالكة سرق لها لص خبيث أسرار قوتها، وتركها عارية أمام العواصف. درب القيامة وإكليل الشوك والصليب أبدا كان قدرها في الطريـق الـصاعد بـين الأرض والسماء.. من غيرها عرف القهر الذي عرفت، وعرف مثلها أن الدم يضيء؟..

في قلب العالم كانت تقف فلسطين وحيدة، تمدّ يديها المسمرتين متسائلة:" أيها العدل لم تركتنـي؟.. أيتها الحضارة لم تآمرت عليّ؟.. أيها الأخوة لم لا تغيثوني؟..أيها الأوصياء لم تغرقونني بـالوعود الوردية وتطعنون حلمي؟.."

بدا للناس أن النصر النهائي لهم فبشائره ملأت نفوسهم شعاعا. سحقت كل محاولـة للغـزاة فـي السيطرة على طريق القدس، وعاش أهل فلسطين أياما مغمورين بنشوة الحماسة وأماني النصر، وعاد أبو غالب من القدس يحمل تلك البشائر.

كانت حنان تنتظر بفارغ صبر انتهاء الأيام العصيبة وتشعر بقلبها ينبض بحنين لا مثيل له للـسلام والحب، وترتعش حناياها لماجد ثم ينقبض صدرها على خوف وتوجس وتتنهد وتعود لما بين يـديها من عمل.

نظر إليها والدها وهو يقرقر في نارجيلته:

- من عنده عمر لا تقتله شدة. في "سفر براك" حاربت أربع سنين. من سريتي لم يرجع غيـري. لا يمحو الإنسان المكتوب في لوح القدر. كنت ماشيا في الطريق أخذوني الى القلعة، ما حـدا عـرف مصيري من أهلي. شفت أهوال شيّبتني وما أصابني مكروه.

- أنا لست خائفة، ولكنني أفكر.

- بماذا تفكرين؟..

- في هذه الدنيا. أنا لا أجد في قلبي الكره. فهل أنا جديرة بالحياة؟..

- هذا هو الفرق بين المؤمن والكافر. نحن لا نحمل الحقد، ولكننا ندفع الأذى!. لا نستطيع أن نقـف مكتوفي الأيدي أمام من يسلبنا أرضنا وخصبنا وكرامتنا. لو أنهم يعرفون حدودهم، لو أنهـم غيـر طموحين وأنانيين بالطريقة التي هم عليها، كنا نرحب بهم ترحيب العربي المسلم الشهم، نلجئهم مثلما ألجأنا غيرهم. ولكن هؤلاء شكل آخر.. حين ينكسر الحاجز الذي ترينه بينـي وبـين الأرض التـي سلبني إياها إلياهو يزول الكره من قلبي. أما الآن فأحقد وأحقد وليس لحقدي من قرار. جاؤوا ليضعوا الحواجز ولا يستطيع الإنسان أن يسير مطمئنا على أرضه وكلها حواجز.

- ماذا نفعل بهم حين ننتصر يا أبي؟..

- لا نفعل شيئا أكثر من أن نزيل الحواجز. لا وطن قوميا في قلب وطننا للغرباء. الغرباء ينصهرون فينا، يعيشون بيننا لهم ما لنا وعليهم ما علينا، ولكن لا يفرضون قانونهم علينا. القـانون لله وحـده، ولكنهم لا يرضون!. مطامعهم كبيرة يا ابنتي، ليسبل علينا الله ستره!.

- الدنيا بحاجة للعدل يابا.

- نحن دائما أعدل الناس.

- ولكن هناك من يقول غير ذلك، أن نرمي بهم إلى البحر وما شابه ذلك.

- يا بنتي، هؤلاء الذين تكبر أقوالهم تصغر أفعالهم. إنهم أنفسهم الذين يفرون اليوم ويتركوننا لُيرمى بنا إلى البحر.

* * *

دب الذعر في مزرعة إلياهو. وخصوصا بين الفتيات اللواتي كان يجبرهن إليـاهو علـى التـدرب اليومي. وأبدت الكثيرات رغبتهن في العودة إلى بلادهن وذويهن. وكانت فورتوني أول المتخاذلات، وجن جنون إلياهو وخيل إليه أن الأمور ستفلت من يديه، وهدد بالقتل كل من تسول له نفسه الهجـرة أو إلقاء السلاح. وكانت الأوامر تصدر إليه من الوكالة اليهودية أن يتشدد في معاملة المتخاذلين الذين وصفوا بأنهم أعداء إسرائيل ولا تأخذه بهم رحمة. وكان الانكسار المتوالي في المعارك على الطرق قد أثبط همم الكثيرين، فرأت العصابات اليهودية أنه لا بد من عمل شيء يعيد الاعتبـار "للهاغانـا" ويقضي على موجة الذعر التي تفشت بين المهاجرين، فأنشبوا مخالبهم بأهل القرى العزل وبالنـساء والأطفال والشيوخ وكانت مذبحة "دير ياسين"!..

قبل أن يطلع فجر التاسع من نيسان جاء الصهيونيون يحملون بأيديهم الرشاشات، فتيان وشبان من "البالماخ" وأصدروا الأوامر بمكبرات الصوت إلى سكان القرية أن يخرجوا بسرعة ويتوجهوا للشارع ويأخذوا أولادهم معهم، فظن الناس أنها عملية تفتيش بريطانية.

وخرجت الزوجات من خدورهن، وأفاق الأطفال مذعورين من نومهم، وسحب الشيوخ المتعبـون أنفسهم من فراشهم، يجرّون شراييهم المتصلبة وعظامهم التي ألهبها الروماتيزم. وحين بلغوا الشارع كانوا موجا من الجماجم الملتوية، والعيون القلقة الحائرة تحت أنوار المـصابيح الكـشّافة.. وشـغل الأطفال العاجزون عن السير ظهور النساء ورقابهن. أما الرجال فمنهم من ذهب إلى الحقول، ومـن يتهيأ للذهاب، ولذلك كان الرجال بين الشباب والكهولة قلة في الجمع الحائر.

القرية محاصرة والمدافع مسلطة نحوها. ولم يخطر لبال أحد ما سيجري، ولم ترتعش قلوبهم على مصيرهم. ربما قلقوا من أجل دجاجات تسرق كما يحدث عادة في التفتيش. وتصايحت الديكـة فـي أمان واطمئنان ففي جو القرية المسالمة لم تطلق بعد رصاصة. وانسلت خيوط الصباح الأولى لتشهد

المجزرة. عيون السماء الخابية وحدها كانت شاهدة على النوايا المجرمة، ورعشة خفيفة على زنـاد بندقية تعلن ذبالة ضمير أشبع قتلا وتجريحا.

تناهت مهلة عشرين دقيقة ريثما تجمع سكان الأكواخ، ونظر القتلة في ساعاتهم، وبصمت رفعـوا فوهات البنادق والرشاشات وحصدوهم، وتساقط الرجال والنساء والأطفال وتعالى الصراخ وكأنه يوم الحشر، وحاول البعض الهرب إلى الغابة الصغيرة فلاحقهم الرصاص، وسقط من سـقط فـصرعوا مائتين وخمسين من أهل القرية، وذبحوا كل جريح حاول النهوض، ثم نـسفوا المنـازل بالـديناميت فتهدمت فوق رؤوس من أبوا إخلاءها. وأشرى خبر "دير ياسين" كالبرق في أرجاء فلسطين وأضيفت إلى تلك المجزرة الرهيبة قصصا من خيال الناس تقشعر لهولها الأبدان عن تمثيل وهتك للأعراض. وجثمت تلك الفواجع كالصخرة على قلوب الأهالي فأصابتهم بذهول لـم يفيقـوا منـه إلاّ وكانـت الضربات تنهال على رؤوسهم من كل جانب.

سكر إلياهو بالنصر الذي أحرزه زملاؤه ودار رأسه لما شرب من أقداح، وكانت فورتوني تنظـر إليه من فوق المائدة في المطعم الجماعي يفخر بذبح الأطفال كما كان أي ضابط نازي يفخر بحـرق الأطفال. صاحت به وقد كفت عن احتساء الشوربا:

- يجب أن تخجل من نفسك يا إلياهو ليس في ذلك ما يدعو للفخر.

وضحك إلياهو وهو يترنح نشوة:

- لا يجب أن يخجل الإنسان إلاّ من الهزيمة.

- هذا لا يدخل في باب النصر ولا الهزيمة. إنه مجرد قتل.

- هكذا الحياة. إما أن نكون قتلة أو ضحايا!.

- ألا تستطيع أن تكون محاربا شريفا على الأقل؟..

- كل شيء مباح في سبيل النصر!.

وضجّ في صدر فورتوني غضب أبكم، وهي ترى إلياهو يشع وجهه بابتسامة الرضى عن الـنفس، وأحست بغثيان لنشوة ضعيف يستنسر:

- لو كنت أعلم أن وجودي هنا لن يكون إلا بذبح الأطفال لفضلت أن أحترق أو أموت.

- بلهاء!.

- الأبله من لا يعتبر. نحن نبني دولة خرافة بهذا الأسلوب.

- الهزيمة وحدها تجعل دولتنا خرافة.

- كل وجود عدواني هو بالنتيجة وجود خرافي.

- التاريخ لا يسجل إلا النصر. وجودنا حقيقة مع النصر!.

- أنت ممتلئ بعقد الماضي. تغير العالم يا إلياهو.

- لم يتغير شيء، "يوشع" كان أحكم رجل في تاريخنا.

- العالم الجديد لن يبنى على العدوان. إننا نرتكب جرائم لن يغفرها لنا أحد.

- سنكفّر عما ارتكبنا من جرائم ونحولّها إلى فضائل بعد النصر.

- النصر، يا له من نصر!.. نحن الذين نبحث منذ آلاف السنين عن العدل، نذبح اليوم الأطفال، ولا نخجل من أن نسميه نصرا؟..

- سمّه ما شئت. هذه هي الطريقة الوحيدة لنبني دولة. اضطُهدنا بما فيه الكفاية.

- ألا يمكنك ملاحظة ردود الفعل المنحرفة لديك؟.. ما ذنب أهالي "دير ياسين"؟ أنقتل تعساء كـانوا يستعدون للذهاب للعمل في الحقول وننتقم من نسائهم ومن أطفالهم؟..

كان الشبان والشابات في المطعم يتحدثون إما "بالليدية" أو بلغتهم القومية. ولم تـصبح ألـسنتهم طيّعة للغة العبرية، التي نزعوا عنها الأكفان ونفخوا فيها، وأحيوها على صفحات الكتب المدرسـية، وفي الإذاعات وفوق المنابر.. وكان رنين الضحكات ونغم الموسيقى يغمر المكان فإذا ما علا صوت فورتوني في حدتها بالألمانية، التفت إليها بعضهم دون أن يفهم ما بها، وغمز بعينيه وضحك..

تأوهت فورتوني وأشعلت لفافة ثم قالت بحزن:

- لا أصدقاء لي هنا. لياليّ طويلة مرهقة، وأيامي مشحونة بالخوف والألم والحنين. أريد أن أعـود إلى وطني!.

- لا وطن لك إلاّ إسرائيل.

- هذا وطن غريب خانق يحمل هواؤه دخان الحريق.

- ليس أمامك وطن سواه.

- لا أريد المزيد من التضحيات. لا يربطني بهذه الأرض شيء.

- حيث توثقين فيها روابطك نفتح لك كنوزها.

- لو أحببنا أوطاننا كما ينبغي لما كنا هدف الاضطهاد. البريء يؤخذ بجريرة المذنب.

- نحن أبدا هدف الإضطهاد لتفوقنا، ولأننا في كل مكان أقلية!.

- "صرّاف الملكة فكتوريا" حين فكر بهذا الوطن ليجعلنا سماسرة انجلترا، لم يكن بعد قد اضـطهدنا أحد. واليوم نحن سماسرة أمريكا.

- أترددين كلام "الأرمل السكسوني" الخرف؟..

- الأرمل يقول ما يلائمه ولكنني أعرف أن أكتشف المعاني الخبيثة من وراء الكلام.

- أتراك مغرمة بالفلاح العربي؟..

- لم أحب أحدا في حياتي حتى نفسي.

- بلى، أعجبك الصعلوك يا فورتوني، قد يكون له دم حار..

وأغاظت لهجته المتهكمة الباردة غضب فورتوني، وقالت على الفور:

- إنه رجل يبهج المرأة. أحب مضاجعته.

وقهقه إلياهو:

- قد يكون للشرقي سحر خاص ولكن انتبهي أن يبقى دمك نقيا.

وهاجت أعصابها ولم تجد ما ترد عليه، ثم قالت بعد برهة تفكير:

- يجب أن تجد لي يا إلياهو طريقة أخرج بها من هنا.

- أراك فقدت أعصابك. أنا الذي أدخلت مئات ألوف المهاجرين بطرق غير شرعية...

- أكره أن أبقى. هذا الدرب مغلق، بائس، مظلم حقير.

- فورتوني!.. نفعل هذا ليتسع المكان للمهاجرين الجدد في المعسكرات.

- أريد أن أخرج. ذهبت إلى الوكالة ولكنها رفضت.

- ماذا جرى لك؟.. كنت متحمسة يوم قدمنا إلى هنا.

- تبددت أوهامي. أفهم تماما كل القذارات التي تنطوي أحيانا على كل كلمة نصر.

- النصر طائر خرافي ريشه من ذهب، يسحر العيون. إن ملكته ملكت المصائر، وانتصبت مـاردة على صفحة التاريخ. لا يسألك أحد كيف، تصمت كل الشفاه، وتنسى ذاكـرة الـزمن، ولا يبقـى إلا البريق!.

- إبق أنت والنصر ودعني أذهب.

- إن كنت ضقت ذرعا بالأرمل السكسوني فقد انتهت مهمته. افعلي ما تشائين. أمريكا اليوم هي التي تحمينا!..

وتأوهت فورتوني دون أن تجيب فأردف إلياهو متسائلا:

- حسنا؟..

- أمقت هذا البراجماتزم فيك يا إلياهو. كم تجد نفسك ماهرا حين تجعل كل من حولك أدوات!..

وانتخذت لهجته مسحة رفيعة وهو يقبض على كأسه وقد تورد وجهه من السكر، بينما كان ينبعث صرير الأكورديون بمعزوفة راقصة، أغرت البعض على الرقص، فشكلوا حلقة وهم يرافقون العزف بالصيحات والصفير:

- يجب أن لا يترك الإنسان صغيرة ولا كبيرة دون أن يستفيد منها في سبيل غايته. ستنسين كل شيء حين نبني دولتنا، ويصبح للمهاجرين أرض يسيرون عليها، هي لهم وليسوا أقلية فيها!.

وحدقت فورتوني بتحد:

- كل أرض تصلح للسير عليها إن لم تكن محرقة. والأرض لا تحترق إلا بالتعصب، نحن بحاجة إلى إنسان ينزع تعصبه، ولسنا بحاجة إلى أرض نزرع فيها إنسانا متعصبا.

- إعقلي يا فورتوني. لم نحتفظ بوجودنا نقيا ألوف السنين حتى نضيعه اليوم وقد أصبحنا أقرب ما نكون إلى هدفنا.

كان الصخب والشراب والعزف تدوس جميعها على مشاعر فورتوني فتحاول أن تخدر الألم الحاد في أغوارها، قالت بابتسامة باهتة:

- ليس من وجود يمرّ عليه ألوف السنين ويبقى نقيا. أترى من أشكالنا أننا عرق نقي؟..

وأشارت إلى المهاجرين. كان بين الراقصين شاب أصفر الشعر مستطيل الرأس يـراقص امـرأة زنجية، وكان للحضور رؤوس عريضة، ورؤوس مستديرة، وأنوف معقوفـة، وأخـرى مـستقيمة. وشعور صفراء وفاحمة، وعيون زرق وعيون بنية وحالكة السواد. وكان في بعضها حـور، وفـي أخرى ميل كالعيون المغولية.

وأخذت فورتوني بالضحك، ولكنه كان ضحكا غير مرح وتوقفت فجأة: حتى أنهم يقولون عنا بأننا خزر تهوّدنا ولم نكن يوما من أهل فلسطين. لماذا أبي لم يتنصّر وينقذنا من لعنة الأقلية؟.. هل كـان من الضروري أن نتجمع، حثالات أقوام لنضرب رؤوسنا على حائط المبكى حتى نـدميها؟.. العـالم يتقدم ونحن نعود إلى عصور الهمجية. نلغي حضارة الإنسان كلها، ونبدأ من البداية.

- نحن شعب يعود إلى أرض أجداده!.

- لقد أصبت يا إلياهو بعقدة الأجداد ولن تشفى منها. فدعني أهرب قبل أن ألتقط العدوى، ترى أيـن أجد السلام؟..

- من قال لك أننا نبحث عن السلام؟..

- إحتمل أنت ما ينجم عن حرق الأرض حولك. لقد دعاني "المستر روبنسون" للسفر معه وهذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنني الخروج بها. لو لم تكن له تلك الرائحة الخنزيرية التي تفـوح منـه!.. يوه. كأنه لا يغتسل أبدا..

- لن تخرجي من هنا مع المستر روبنسون.

- ولا أنا أريد.. رائحة قدميه كالجيفة ولا يلاحظ ذلك.

- لم نعد بحاجة إليه، انتهت مهمته بالنسبة إلينا.

- إن لم أجد طريقة أخرى ذهبت معه.

- لا ترتكبي حماقة. الأوامر صارمة. ليست دون الإعدام.

- الإعدام؟..

- إن كنت لا تصدقين مرّي بمكتبي وانظري الأمر السري الصادر.. كأنما أنفقنا على الهجرة مليارات الدولارات لتعودي بعدها!..

قال هذا وترك المطعم، وبقيت فورتوني تحدق بالصحون الفارغة في قلق وتفكير. ولم يلبث أن لمع ذهنها خاطر، فغمغمت:

- سأذهب إليه. سينجدني. سيجد لي طريقة أخرج بها من هنا.

* * *

لم يكن هناك إعلام عربي موجه يوضح الأمور الراهنة على حقيقتها، وأصبح المذياع هو وسيلة أغلب الناس لمعرفة ما يجري، وكانت "إذاعة الهاغانا" تصول وتجول فيه وتبذر بذورها السامة دون أن تسمع الآذان العربية ردا عليها يخفف قلق الناس وحيرتهم ويعزز قلقهم. وتملك أبو غالب كما تملك غيره الإحساس بالعزلة. فلقد كانت تعسكر على مقربة منه مفرزة من الثوار فتحركت إلى الجنوب نحو " القسطل"، ولو أن هجوما شُن على المنطقة لما استطاعت الحامية الصغيرة التي تتوزع بين الحراسة حينا، والعمل أخرى أن تصمد طويلا. وزاد جنوح عائلات من الجوار إلى الهجرة من وحشة المكان. فعائلة جريس سافرت إلى أمريكا، وعائلات أخرى انتقلت الى يافا وإلى القدس وإلى خارج فلسطين. وفي كل ليلة كانت تنطفئ الأنوار من البيوت، ويترك أصحابها ثغرات خلفهم. وكانت الهواجس تعصف في صدر أبي غالب!.. ماذا يفعل بعائلته وأين يذهب بها؟.. أشار على أم غالب أن تنتقل إلى بيت أخته في يافا ريثما ينجلي الوضع، ولكن أم غالب لم تكن في البداية تجد الحال من الخطورة بحيث تثقل على أحد. ولم يحزم أبو غالب أمره وأسلم مصيره لله. ولكن أحلامه كانت

مبهمة بائسة، وأفاق يوما وهو يبكي دون ان يذكر الحلم الذي أبكاه. كان يطوي جوانحه على خـوف تعس وهو يصغي إلى الشائعات التي تدور بأن " الملك عبد الله يتآمر على تسليم الساحل الفلـسطيني إلى اليهود لقاء ضم المنطقة الداخلية إلى مملكته. أسر إليه الشيخ بما يسمع مـن بـواطن الأمـور، وأردف:

- إنها مؤامرة رهيبة يا أبو غالب.. لم يعرف المسلمون في كل تاريخهم مثيلا لهـا. إن أملنـا فـي المفتي أن يحبط تلك المؤامرة.

ولكن أبا غالب لم يكن ليصدق مثل تلك الشائعات. كانت من الفظاعة بحيث تبدو له غير معقولـة ولا يقدم عليها مسؤول مسلم مهما مضت به روحه الشريرة.

- لا، لا، إنه صرّح بأنه لا يفرط بشبر من الأرض وأنه يضع جيشه لإنقاذ فلـسطين. لا يجـب أن نصدق تلك الأخبار المغرضة فلعلها من صنع العدو لتمزيق صفوفنا.

وهز الشيخ رأسه وقال بلهجة مهمومة:

- ينبغي لنا أن نكون يقظين، وسنرى ما تتمخض عنه الأيام. أما إذا تأكدت تلك الـشائعات، نكـون أعداء الله إن تركناه في سجل الأحياء بعدها.

كان يتحدث بانفعال وهو لا يكاد يسيطر على نفسه، وعيناه تشتعلان بأوار غريب. كان يـرى أن مثل تلك الخيانة لا يغسلها عن جانيها كل الميتات مجتمعة. وليس من كلمة في قاموس اللغة بقـادرة على أن تعبّر عن مدى فظاعتها.

دق الباب فأسرعت حنان لتفتحه وقلبها مضطرم بأمل خفي أن يكون الطارق ماجد، وإذا بها تواجه بوجه غريب يطل عليها من فرجة الباب الحديدي، وجه فتاة شقراء قد عقصت جدائل شعرها الذهبي

حول رأسها. وحين تأملتها تذكرت من هي وتملكها العجب من قدومها، وسألتها عن حاجتها دون أن تدعوها للدخول فأجابتها بلكنة أجنبية:

- غالب، هون؟..

- لا، مش هون.

- لازم شوفه. Very important فري إمبورتانت .

- مش هون. أنت فورتوني مش هيك جيت مرة؟..

- أيوه.

- فيه شي أقول له؟..

- أنا لازم قول. كثير لازم شوفه معليش فوت؟..

حارت حنان بأمرها وأخذت تتفرس في وجهها بارتياب. لم يكن في قسمات الغريبة خبث بل قلـق وضراعة.

- بتعرفي غالب؟..

- معلوم تعرفه. لازم بيقول غالب Something important سمثينج امبورتانت.

كانت تلفظ العين ألفا وتقلب الغين إلى جيم مصرية، ولكن حنان كانت قد اعتادت من جوتا مثل هذا اللفظ فلم يعسر عليها فهم ما تقول:

- قولي لي اللي بتريديه بوصله إله. غالب مش هون.

- مش ممكن. بس أنا قول غالب Something special سمثينج سبشل.

- بس غالب مش موجود.

- ممكن استنا شوي. غالب بيجي؟..

كانت الظروف تبعث على الارتياب والحذر وخشيت حنان أن يكون للطارئة مأرب نذل فتريثت في إدخالها ريثما تستشير والديها.

قالت أم غالب:

- أعرفها جاءت قبل هالمرة وسألت عن غالب، لما قلت له، جاوبني: إن جاءت مرة ثانية أطردها.

ولكن حنان لم تكن ترغب في أن تتركها تذهب دون أن تعرف غايتها:

- منفهم إيش مالها.. ما بعتقد أنها خبيثة..

وقال أبو غالب:

- لازم نحذر من كل مظهر بريء. إيش بيعرفنا مش جاي تستطلع أحوالنا. إيش بدها بغالب وإيـش علاقتها بيه؟..

- بتقول أنها بتعرفه، وأنه عندها شيء هام بتريد تقوله إله.

- خليها تفوت نشوف إيش بها.

أدخلتها حنان غرفة الاستقبال، فجلست بتؤدة على الديوان الخشبي المغطى بمفـرش متـدلي مـن الديماسكو، وقد غطى المقعد والأطراف العليا من الوسائد بمفرش أبيض بحواشي من الدنتيلا كـوي بعناية من عهد قريب، ولم يجلس عليه أحد بعد. وسمّرت الفتاة عينيها على منضدة جانبيـة عليهـا بعض الصور ووقفت وتناولت صورة غالب، وتأملتها وارتسمت على شفتيها بسمة صـغيرة كأنهـا تتذكر لحظات حلوة، وتنهدت ونظرت في عيني حنان اللتين كانتا تشبهان إلى حد بعيد عيني أخيهـا، ولم تتمالك نفسها من أن تضمها فجأة وتقبّل عينيها:

- ياه: أنت مثل غالب. تشبهي عيونها. حلوة كثير.

لم تكن حنان تعلم من خفايا حياة أخيها غالب إلا ما حدثتها به جوتا. فلم يكن بينها وبينـه صـداقة كالتي بينها وبين رفيق. كان غالب يبدو لها جلف الطباع سيء الخلق أحيانا، لا يمكن لها أن تطمـئن إليه وتسارّه بمكنونات قلبها، كتوما حذرا لا يرغب بدوره أن يشارك أحدا في همومه ومشاكله، يتطلع إلى إخوته بكبرياء الأخ الأكبر وسلطته، عدا علاقة الأمر من جانبه والطاعة منهم. فإذا لـم يوفـق انقلب الى مشاكس حرن. وكانت حنان تحسب حسابه وتخشى أن يتصرف بأسلوب يجرح فيه مشاعر ماجد، أو يقف موقفا عدائيا فيهدم فجأة حبهما ويمرغ به التراب. إنه مشغول اليوم عـن محاسـبتها، ولعله يضمر لها ضغينة لمخالفتها إرادته، فإن صمت فعلى مضض منتظرا فرصة للانفجار. وكـان اعتراف فورتوني يبعث في نفسها شعورا غريبا من الشماتة والارتياح. إنها على ثقة اليوم من مكمن ضعفه، فما أغرب أن ينصب من نفسه حارسا عليها دون أن يملك ردع نفسه، أم أن أولئـك الـذين يغرقون في خطيئتهم هم أشد الناس عنفا في محاسبة هفوات غيرهم؟.. لا يمكن لها أن تتخلـى عـن ماجد من أجل أحد. يجب أن يفهم هذا.. ولعله يفهم، فالقلب الذي تعصف به أهواء الشباب لا بـد أن يعذر قلبا محبا، ونضوب العاطفة وحدها ما يجعل القلوب متحجرة غليظة الفهم!.

كانت تود أن تزداد معرفة بما يطويه غالب من أسرار، فكانت تصغي بلهفة ومودة لما تحدثها بـه الغريبة.

- بتحبيه كثير؟..

- يا.. كثير.. بس مش كويس مدام تحب كثير.

- ليش؟..

- My friend ماي فرند بيخب واحد أراب. بعدين فيه تنين بيبي. عينها أسود كثير خلوة. رموش هون!.

وأشارت بيدها إلى منتصف وجنتها لتعبر عن طول رموش الطفلين، وأردفت:

- بابا لازم ياخد بيبي. ماما كتير زغلان.

- الظاهر مش متفقين؟..

- مش ممكن Marry ماري، فيه دم، دم كثير، مش ممكن خب.

كانت تهز رأسها عن استحالة قيام أية علاقة مسؤولة، وفجأة تعكرت عيناها وامتلأت بالدموع:

- أنا فيه كمان بيبي. لازم غالب تعرف.

وهبّت حنان واقفة وقد اعتراها شبه ذهول، وأبكمها الخبر فأخذت تتطلع إلى المرأة بعينين متسعتي الحدقتين، وقد انقطعت أنفاسها وجمدت دون حراك. وأخذ قلبها يدق بعنف كأنما لا تسعه جوانحها. ثم أحست ببرودة تسري في حناياها وترجف شفتيها ذعرا، وتجعل العرق البـارد ينبـع مـن رأسـها وجبينها. وفجأة أحست بريقها يجف وصوتها يتهدج ويخذلها:

- أنت عندك بيبي؟..

- يا.. أنا تارف. Surely شورلي بيبي غالب.

وأوشكت أن تقول لها حنان بأن غالب عقد قرانه، وعلى وشك الزواج ولكنها امتنعت. لقد أدركـت مأساتها بكل ما يحمله قلبها الفتي من عواطف متقدة ساذجة، ولم تشأ أن تملأهـا تعاسـة بتوضـيح الحقيقة لها بأن علاقتها مع غالب لا أمل فيها مطلقا. إن من أمامها هي أخت إلياهو الذي اغتصب من بستان البرتقال أخصب بقعة فيه بوسائل غريبة شيطانية، والذي ألقى القنبلة في مزرعة أبـي حـاتم، والذي سبب سجن والدها، والذي يهدد بالاستيلاء على البستان كله عنوة وإرغاما. ما هذه القـصة؟.. إنها مصيبة لا شك فيها تدفع إلى الجنون. وبعد فترة من الصمت سألتها بقلق:

- إيش بدك تعملي؟..

- مش تارف. أنا لازم برة بالستاين. مش ممكن حب. مش ممكن Marry ماري بس لازم بيبـي مش بيموت. إلياهو mad ماد أنت مش تارف إلياهو.

- بدك يعيش عند غالب؟..

- لازم بيشوف غالب first فيرست، مش تارف كيف لازم Behave بيهيف.

- يمكن غالب ما يجيش.. كثير مرات يبقى في يافا.

- لازم شوفه لازم أنا برة بالستاين. إلياهو مش ممكن أنا برة.

- بيعرف إلياهو بالقصة؟..

- Impossible, no, no, no, إمبوسيبل، نو، نو، نو.. أنا أحكي إلياهو؟.. أنا أحكي أنت بـس. لازم غالب تارف. تنين مرة أنا بيجي هون، ماما أنت مش لازم بيشوف. غالب زغلان مش لازم أنا بيشوف. مش ممكن خب أنا غالب.

- الحب ممكن بعد مذبحة دير ياسين؟..

وتململت فورتوني وهي تجد العسر كله في العثور على كلمات تعبر فيها عـن خوفهـا ويأسـها وعذابها:

- Believe me بيليف مي مش كويس Barbaric act باربايك أكـت! يـا انـا تـارف It tortures me so إت توتتشرز مي سو، لازم روخ بره بالستاين. بس موش ممكن. يا..

ووضعت يدها على رقبتها بحركة توحي بنوع من العقاب لمن يغادر البلاد.

- لازم شوف غالب كثير I am desperate آي آم دسبيرت، لازم روح بره بالستاين.

- بيقدر غالب يخليك تطلعي؟..

- هو تارف. أنا مش تارف كيف. بيبي مش لازم بيموت.

- وين بدك تروحي؟..

- East Germany ايست جيرماني ممكن Communism كومونيز مش تسأل إنت مين. كلـه واحد، بابا Communist كومونيست هتلر، Killed كلد.

كانت حنان تجلس قبالة باب الاستقبال المفتوح، ورأت والدها يشير إليها مغيظا أن تـصرف تلـك الغريبة التي طال معها الحديث. فقالت:

- أكيد غالب مش جاية الليلة. بعد هلق مش ممكن ييجي منع تجول.

وبان الذعر في عيني فورتوني.

- لازم شوف غالب. مش ممكن روح إلياهو Mad ماد أنا هو..

ولم تجد الكلمة المناسبة لا بالعربية ولا بالإنكليزية فوضعت سبابتها اليمنى على اليسرى متـصالبة معقودة لتعبر عن الشجار الذي احتدم بينهما ثم طعنت رقبتها بيدها اليسرى كأنها حد السكين.

- إلياهو تارف، أنا بيموت، لازم بره بالستاين. لازم غالب أنا بره بالستاين.

كان أبو غالب يضرب أخماسا بأسداس متجهم الوجه نافذ الصبر، يريد أن يعرف غاية الغريبة من قدومها إلى بيته الذي ينذر بشر ما، بحدس يدفعه بشكل غائم، ويسبب له الحزن الذي تحول فجأة إلى غضب. لقد عوّل على طرد الغريبة مهما كان من أمرها، فلا أحد يعلم من وراءها ومن يدفعها ومن يخطط لها، فالحزم واجب في هذه الأمور. واندفع إلى الغرفة ولكن حنان كانت أسرع إليـه، فتوقفـا عند الباب، وهمس لها بجد وإصرار:

- إيش إلها شغل عندنا؟.. لازم تروح من هون!.

- بدها تطلع من البلد. عم تلتجئ إلنا نطلعها. خايفة من جماعتها.

- يلعن أبوها على جدها. لازم تروح من بيتي. نحن مسؤولون عنها؟.. فيه وكالات، فيه سـفارات، فيه عزرائيل ياخدها.

- أبي إذا بتقدر تساعدها ساعدها. عاملها كإنسانة في ضيق، مسكينة خايفة ترجع لجماعتهـا. عـم تلتجئ إلنا!.

- بدو يعرف الواحد شو وراها. مش ممكن أتحمّل مـسؤوليتها. واحـدة لا بعرفهـا ولا بتعرفنـي، وبهالظروف؟..

- خلينا نشاور غالب. بكرة بيجي.

- ما بجيب لغالب المتاعب وبحطه في موطن ريبة. إيش بدنا فيها؟..

- إنسانية. واحدة التجأت إلنا. ما بدها إلاّ تطلع من فلسطين لأي مكان.

- حاجة تجادليني. قلت لك اطرديها.

كانت أم غالب تقف متوارية خلف الباب تصغي إلى الحوار صامتة ثم قطعته فجأة وهي تضع ثقلها في كفة زوجها:

- غالب ما بيريد يشوفها. وصاني أطردها إن أجت..

وأحست حنان بالخجل يتملكها، وحرجت وترددت أن تفعل ما يأمر به أبوها فاحتدم أبو غالب:

- إيش مالك؟.. ليش ما عم تحركي ساكن؟..

قالت أم غالب:

- يمكن بتمثّل. إيش بيعرفك؟.

- لا. صادقة. عندي إحساس أنها صادقة.

قال أبو غالب:

- يا بنتي لو صادقة! نحن في معركة، الشفقة غفلة، يمكن تكون جريمة. إيش بدنا بوجع الـ راس؟.. حاكيها باللطف قولي لها ما بيطلع بإيدنا.

- ما بقدر أجرحها.

- أنا بحاكيها إن كنت مستحية.

ولم تنبس حنان ببنت شفة. كانت مطرقة، فاندفع أبو غالب إلى الداخل مـ نفعلا. وأخـ ذت حنـ ان ترتجف وهي تصغي للهجة العدائية التي ينهر بها الغريبة. وأدركت فورتوني دون أن تفهم ذلك السيل الجارف من الكلمات، أنها غير مرغوب فيها فقامت تجر نفسها إلى الباب. وبقيت حنان مذهولة لحظة وقد غاص قلبها بعذاب لا قبل لها باحتماله، وهي تشاهد فورتوني من النافذة تسير بانكسار. وتوقدت عيناها ببريق خاطف ثم لحقت بها وهي تقول:

- أنا آسفة. آسفة من كل قلبي. راح قول لغالب. إذا كان عنده طريقة لمساعدتك بيساعدك.

مسحت فورتوني عينيها الدامعتين وقالت:

- لازم تارف. فيه دم. مش ممكن مثل أول . Never نفر.

- أنا فاهمة، بريد أساعدك.

- مش لازم. أحسن أنا بيموت!.

وأجهشت بالبكاء فأحست حنان كأنما يخترقها نصل حاد:

- لازم يكون عندك أمل لازم هوب Hope.

- مش ممكن هوب Hope. بكرة وور War. نار كثير دم كثير، بره بالستاين مش ممكـ ن.. روخ هون بيموت، روخ هون بيموت.

وأشارت بيدها إلى طرفي البستان، فأدركت حنان ما تعني. وكانتا قد بلغتا الحاجز فتوقفت لحظة ثم قالت:

- أنا لازم بيقول: فيه Danger دانجر إنت هون. أنا تـارف. إليـاهو أمبشـسس Ambitious إلياهو كتير Mad ماد.

ولم تجب حنان فأردفت فورتوني:

- ممكن ربلاي Reply؟..

- أنا رح أقول لغالب. بس كيف أتصل فيك؟..

- أنا تيجي بعد سبع يوم مثل هذا ساعة. كويس؟..

- كويس. مثل هالوقت الساعة سبعة.

- جود باي، بوس غالب. قول له فيه دنجر Danger هون.

وعجبت حنان للطريقة التي تسللت فيها الفتاة عبر شجرة ليمون تمتد فروعها فوق الحاجز. وحـين تسلقت الشجرة ووقفت فوق كانت الشمس الغاربة ترمي آخر شعاعاتها على وجهها المذهّب. ولوحت بيدها وأرسلت قبلة على أطراف أصابعها، ولم تلبث ان اختف هابطة إلى أسفل.

سارت حنان على مهل عبر البستان، وقد ألحّت عليها صورة الأخرى التي تعيش أزمة حقيقية خلف الجدار. حاولت كل جهدها بكل ما فيها من حذر وترو أن تجد مثلبا أو اختلافا في الروايـة يوحيـه تصرف غير منطقي أو حركة مفتعلة فلم تجد فيها إلا بساطة الصدق. لم تكن تريد أن تستغل غالـب أو تفرض نفسها عليه، فلماذا تلتجئ إلى الكذب؟.. ورأت حنان أن من الحكمة أن تخفي الأمر عن كل كائن حتى رفيق وتُبقي الأمر سرا بينها وبين غالب ريثما يتخلص من ورطته بطريقة ما ويجد لهـا حلا.

وحين ادلهم الليل جاء رفيق كعادته فأخبرته حنان بالجانب الصريح من الأمر ورجته أن ينبئ غالب فيسعى جهده لمساعدة تلك المرأة المغلوبة على أمرها، بطريقة ما لا تحرجه. قال رفيق:

- لا أستطيع أن أشغله بأمرها. غارق لأذنيه.

- ضروري!.

- البارحة كان اجتماع للقيادات الشعبية والرسمية. قامت مشادة كلامية جارحة بين غالب وبين قائـد سرية.

- هذا وقت المشادات؟..

- إقطاعيين بدهم يتحكّموا فينا.

- غالب جامح العاطفة. نحن نعرفه.

- الحق معه. بدهم يبيعونا. بيريدوا تتحول الثورة وكل ما أهرق من دماء لنفعهم لا لتحرير الأرض.

- ما عندهم شعور بالمسؤولية؟..

- لا تعرفين قلبهم من ظهرهم. كأنهم موافقون على التقسيم ويتظاهرون بغير ذلـك. يرفـضون أن تدور أية معارك في الأرض التي خطط لها ان تكون للصهاينة بمشروع التقسيم، بدهم الثورة تحمـي فقط الأراضي العربية. غلط حطينا أيدينا بأيديهم.

- يعني يتركونا لمذبحة مثل دير ياسين؟..

- جاءنا رجال مخلصين من جيش الإنقاذ وأنذرونا أن الأوامر تمنعهم من تجاوز الحدود العربية في المشروع. وقالوا لنا اعتمدوا على أنفسكم.

- العمى!. كيف نعتمد على أنفسنا؟..

- هيك، ما بتعرفي مؤامرة أو جهل. شيء لا يصدّق. فوضى وسوء تسليح ما لها مثيل. فرق غيـر رسمية صارت تقصف مراكزنا تظنها مراكز للعدو. ناس جايين يعملوا دعاية، وناس خلايا، ونـاس جايين يحصّلوا غنايم، والمخلصين مثل الوردة لحالها ما بتألّف بستان. بطولات فرديـة بـلا قيـادة مخلصة ما بتعمل شيء.

- مين بده يحمينا؟..

- ما عدت أثق بحدا. كأنها مؤامرة لكف يد الثورة الفلسطينية وعرقلـة حركتهـا. كثـرت الأيـدي واحترقت الطبخة. ما بيعرف الواحد كيف يبرر هالتخريب. بتسلميهم موقع بينسحبوا، بيشتد الخطـر على ضيعة بينسحبوا وبيتركوا أهل الضيعة بلا سلاح تحت رحمة العدو. أهل القرى، الذعر تفـشى بينهم بشكل مخيف بعد مذبحة دير ياسين!.

- ونحن إيش مصيرنا؟..

- يمكن نخلي الدار، نبعتكم لضيعة قريبة من دار سليم، اللي بياكل العصي غير اللي بيعدها. تجـي قوة من الجهاد المقدس تتركز هنا وتحمي المنطقة.

- رضي والدي؟..

- يعاند كعادته ويرفض يطلع من البيت. صحته متأخرة هالأيام، نحمله على أكتافنا، صعب!.

- أنا أبقى يمكن تحتاجوا إليّ.

- ما بيناسب. البيت رح يكون ملان رجال. وماجد مابيرضاش، ماجد التحق فينا. عرفت؟..

- التحق فيكم؟ إمتى؟..

- اليوم، عرض تروحوا للدار عندهم.

- منروح. أنا بتطوع في المستشفى.

- بكرة بيرجع زوجها. ما منريد. في دار سليم أحسن. قراب علينا. منعيش سوا أو منموت سوا.

- متل ما بتشوفوا مناسب. بس ضروري أحكي مع غالب. ما تنسى الله يخليك.

استعد رفيق للخروج وهو يحمل ما يستطيع حمله. كان الزيتون قد تخلل ونضج فملأت أمه له تنكة فارغة بالحب الزمردي والأسود المكتنز اللامع وتنكة أخرى بمربى البرتقال، وقالت:

- إيش عم تاكلوا يا نور عيوني؟..

- يبعتوا لنا من القيادة تموين ومعلبات وبيعطونا معاشات مناكل مرات في المطعم، مرات مننعـزم عند أهل الضيع. بس ما فيش أطيب من أكلك. ياريت كنت أقدر آخـذ معـي طنجـرة هالمجـدرة. بيلاقوها قد الدنيا. بس ما بديش كّبر حملي. المسافة بعيدة.

أسدل الليل، وتغير الجو عما كان عليه في النهار فهتفت أم غالب برفيق أن يتلفع جيدا فـالبرد آرز والجو منذر بهبوب عاصفة. وفجأة سمع خبط قنبلة فارتج المنزل. كانت مدافع الهاون تقصف المنزل من مكان قريب. وأُطفئت الأنوار، وتوجس الجميع خيفة. كان المذياع الصغير وحده يتكلم في العتمة، وأصغت حنان برهة إلى التمثيلية التي تُذاع، وبدت نابية ولكنها مع ذلك مؤنسة تنفض هيبة الموقـف وتلمست مصدر الصوت، وخفقته دون أن تطفئ المذياع. وصاح هاني مذعورا: "يا أمي!." وأحست به يقترب منها فضمته وهدأته وهي تكاتم اضطرابها وهتفت أم غالب قلقة:

- أطفئي الراديو. ليش ما بتراعي الظروف؟..

- يعني ما براعي الظروف حتى ينخلع قلبي وأرتعش بها العتمة؟.. ما دام لا عارفين ويـن بـدنا نروح ولا وين بدنا نتوجه، وبره عواصف ومطر فعلى الأقل منحـتفظ برباطـة جأشـنا. الـصوت يؤانسنا.

- ضربهم شزر. على غير هدى.

وأشرق البرق وأرزمت قنبلة بدوي قريب وأرعدت السماء، وانطفأ بصيص النور الذي كان ينبعث من المذياع، قطع التيار الكهربائي. وخُيل لحنان أنها تسمع عويلا كذلك الذي ينفجر فجأة في منـزل أصيب بنكبة، أم تراه الوهم؟..

كان أبو غالب يقرأ وردا من القرآن حيث يستلقي على الحشية في صدر الغرفـة وترتيلـه يـسمع بوضوح في سكون الليل، فجلست قربه وهاني يشد عليها الوثاق فرقا وهي تهدئه بالـضغط عليـه، وكانت النافذة قبالتها حيث تجلس مفتوحة، وانشقت السماء فجأة عن شبكة من خيوط البرق، ولم تعـد تفرق بين هزيم الرعد وخبط القنابل: ظنت أن احتمال الإصابة ضعيف ولكن بدا لهـا أن القـصف موجه للمنزل.

في تلك اللحظة الرهيبة التي كانت تواجه فيها خطر الموت شاهدت حياتها تمر سريعة أمام عينيها. في السابعة كانت السماء قريبة جدا منها، ملك يمينها، امتلأ خيالها الغض بالوعود التي كانت تمنيهـا بها السماء. كل حرماناتها تتحقق هناك. إنها حبيبة الله تحلم به كعملاق طيب يقف عند باب مدرستها يحمل الفتيات الصغيرات، ويتأملهن ثم يوزعهن هذه إلى الجنة وهذه إلى النار. لم تكن تخشاه، كانت تحس دائما أنها أثيرة عنده، وأنها لا تحتاج إلى أكثر من أن تصعد سقف منزلها وتمـد يـديها إليـه فيلتقفها ويريها بدائع فراديسه. كانت خيبة أملها الأولى أنه لم يحقق لها أمنيتها حين صعدت إليه، بل كسرت ساقها وهي تنزل السلم مسرعة كي لا يفاجئها والدها تصعد الأسطحة المحظّرة عليهـا. ثـم اكتشفت فجأة أن الصلة بين الإنسان وهذا العالم الآخر لا يكون إلا بالموت. ولقد شاهدت في طفولتها من مظاهر الموت ما جعلها ترتعد، لماذا يعول الناس ويبكون ويدقون صدورهم ويشدون شـعورهم أمام الموت؟.. كان طفلا في سنها ذلك الذي شاهدته أصابه التيفوئيد. الموت شيء كريه. تغلبت على الموت بالحب. كانت تحس بقلبها الصغير ينتفض حبا للكائنات. دموعها تجري على وجنتيها وهـي

تصغي إلى مؤذن الجامع بصوته الشجي يرتل القرآن. وفي الثانية عشرة كفت عن التفكير في العالم الآخر وانتصر فيها الحب للحياة. ولم تجد الحياة التي لا يعيشها الإنسان إلا مرة جديرة به، تلاحقها خيبة الأمل، تغرق بالخجل. أين مصدقة فقر الحال؟.. هذه الفتاة موهوبة. إنها أكثر من يستحق أن يذهب في بعثة إلى لندن. أحبك يا حنان. كانت أنفاسي تقف وأنت تمرين مع رفيقاتك ضاحكة وقد انحسر ثوبك المدرسي عن ركبتيك البضتين. لو أن هذا الموت الطائر أصاب هدفه لماتت آلاف الصور التي أختزنها. عالمي كله صور، كله انفعال، كله حب، كله غضب مقدس للظلم. لو مت اليوم لما تركت أي أثر، لم أكن قلت كلمتي بأن الحياة غير جديرة أن تُعاش وهي على ما هي عليه. أحس في أعماقي برغبة التغيير، بالقدرة على التغيير. لا يمكن أن أكون فريسة للموت، لا يمكن. ومع ذلك أنا عرضة لأكون في أية لحظة لا شيء، أنا وأهلي كأننا لم نكن، ضحية موت طائر أعمى يوزع هداياه دون تمييز.

طُرق الباب فتوجس الجميع وهتف أبو غالب برفيق:

- ما تفتح قبل ما تعرف مين.

كانوا نفرا من الثوار المرابطين قريبا من المنزل يستعجلونهم بالذهاب إلى القرية المجاورة لأن قنبلة أصابت مبنى مجاورا كان لحسن الحظ مهجورا فهدم.

رفض أبو غالب ترك منزله وقال:

- روحوا إنتوا. أنا قاعد هون. قرأت آية الكرسي خمس وخمسين مرة. ما راح يصيبني شيء. بيتي ما بهجره.

ولكن رفيق ألح عليه بإصرار فقال على مضض:

- ليش بدكم تعتروني؟.. رجال كبير بسني جسمي مخلخل وراسي دوخان؟.. بيتي أستر لي.

- كلها كام يوم نشوف الوضع بترجع ما راح يهرب البيت.

تركوا المنزل ورافقهم رجل ملفع بكوفية وعقال ينير لهم الطريق من حين لآخر بضوء كشاف بينما بقي رفيق في المنزل مع العصبة من الثوار. ورافقتهم عائلة أو عائلتان ممن بقوا في الجـوار ولـم ينزحوا كغيرهم.

وكانوا ملتفين كل فرد ببطانيتين تقيانه أذى تلك الليلة الرهيبة بصرير رياحها المتناوحـة وتبـوج برقها وزئير رعودها وتهتان وابلها.

ساروا على مهل في آخر القافلة والبرق يشري أحيانا وينير الظلمة المدلهمة فتمتد على برك الماء في الطريق أخيلة طويلة لتلك المجموعة التي هجرت بيوتها.

وكانت حنان تشعر بالبلل ينفذ حتى عظامها وبأطرافها متجمدة ووجهها كأنه قطعة منفصلة عنهـا نفحت وجهها الرياح وبشفتيها متشققتين متجرحتين ولا تقوى على إطباق فمها، وقدمها التي لم تبـرأ كليا تخزها من جديد بسبب ما أصابها من برد وجهد. وكانت تتجالد وتضرع أن لا تخونها قـدماها. أحست لحظة برغبة أن تلقي بنفسها إلى الأرض وتستريح لولا أن الحياة غالية. لم تـدر لـم طـال الطريق إلى هذا الحد وكانت تعرفه أقصر. فكأنها تخطو إلى الأمام خطوة وتدفعها الريح إلى الخلف خطوتين. وفجأة أصدر والدها صيحة ألم خافتة وهتفت أمها التي كانت تعتمد عليه بجزع:

- إيش بك؟..

- ما بعرف. شي شكني في خاصرتي. يا أمي.

- تحامل شوي. راح نوصل.

- ألم ما بنطاق.

وسمعت حنان تأوهه خلال الظلمة الكثيفة.

- قلت لكم خلوني أنستر في بيتي. يا أمي.

- أنادي حدا؟..

وغمغم بكلام لا يستبين، وأردف:

- وقفوا وقفوا.

قالت أم غالب:

- كيف نقف؟.. سبقونا وما دريوا فينا في العتمة. تحامل شوي واتكي عليّ. أبو غالب إيـش صـار لك؟..

ولكنها لم تسمع جوابا وأحست بجسمه يهوي. والتمع البرق ورأت حنان والدها مترنحـا علـى الأرض، وصاحت جزعة تنادي الجماعة التي تسير في المقدمة فتوقف الجميع وتـساءلت أصـوات مختلطة في الحلكة عما جرى واقتربت دون أن يستبين أصحابها.

- أمسك طرف هالبطانية.

- أشعل عود كبريت.

- إيش صار لضو الكشاف؟..

- تعطل.

- احملوه. شو صار له؟.. متصاوب؟..

- مريض!.

وانطفأت عدة أعواد بفعل الريح قبل أن يستبينوه. وكانت الرياح تتناوح، ولكن الأمطار خف وابلها. وحُمل أبو غالب في بطانية مبللة وأسرع به إلى القرية. وكانت أم غالب تلحق بهم وتتوسل إليهم أن يدفئوه ويضعوا شيئا ساخنا على الموضع المتألم.

وحين بلغوا القرية فاجأتهم رائحة نشرها الهواء هي مزيج من رائحة البهائم والعرجـون وراحـوا يغوصون في مجامع المياه حتى بلغوا الأكواخ حيث وُزعوا.

استضاف المختار عائلة، واستضاف رجل ميسور كان أولاده يعملون في المهجر عائلـة أخـرى ونزلت عائلة أبو غالب في بيت سليم. ولم يكن ذلك الرجل الملفع إلا سليم نفسه واستقبلتهم عند الباب فضة تحمل مصباحا غازيا عتيقا كدرا لما هدده الهواء يرسل شعاعا خابيا، وخلفها ضرتها العجـوز وحيّتا في تهلل وكرم. وسألت أم غالب عن زوجها فابتسمت فضة وأشارت إلى الداخل.

نزعوا أحذيتهم الغارقة بالطين ودخلوا. كانت النار تتأجج في الموقد الكبيـر الـذي تـشتعل فيـه الأحطاب والأعواد اليابسة، وانعقدت في الجو سحب الدخان فلم يستبينوا لأول وهلة أبا غالب الـذي كان مستلقيا على فراش حقير غُطي بجلد الماعز وقد نزعت عنه ثيابه وارتدى من ثياب سـليم رداء خلقا قرويا. وكان أحدهم يسخن له بلاطة عتيقة ويلفها بلفائف من الخرق فينتـشر رائحـة القمـاش المحروق ويضعها له على المكان المتألم.

قال بوهن:

- وصلتوا؟..

وسألته أم غالب:

- كيف عم تحس حالك؟..

- أحسن شوي. الله يجازيهم بالخير قديش أوادم.

حارت المرأتان بما تفعلان لإكرام الضيوف. وهيأتا لهم عشاء من البيض المقلي بالـسمن وزبـدة طازجة وسكر وتين مجفف وجوز. وكانت أرغفة الخبز تخرج من الصاج ساخنة هشة فتحملها فضة وتقدمها لضيوفها ووجهها الجميل النحيل الذكي يلتمع بإشراقة مودة:

- أهلا، أهلا بيكم. كان لازم تنتظروا الحوادث حتى تضيفونا؟..

وقال سليم وهو يهم بالخروج:

- خدوا راحتكم، أنا رايح. بكره الصبح بمر أطمئن على أبي غالب.

ولم يمض كبير وقت حتى رقدوا على فرش متقاربة ودثروا ببطانيات نظيفة كان قد حصل عليها سليم من مخلفات الجيش البريطاني وكانت ثروة بالنسبة لأصحاب الكوخ فهي الأشياء الوحيدة الجديدة نسبيا في مأواهم.

ولم تنم أم غالب إلا خطفا، وكانت تنتفض حين تستمع في العتمة إلى أنين أبي غالب قربها فـتلمس جبينه. إنه محموم يهذي: البرتقال يحترق. طفوا الحريق، طفوا الحريق.

وفي صباح اليوم التالي جاء رفيق فوجد والده على حاله من الحمى فهاض الخوف قلبه عليه فليس من طبيب يمكن إغراؤه ليجازف بنفسه في القدوم.

كان أبو غالب الذي يكره تغيير عاداته ومكان نومه والأشياء التي تحيط به يلح في العودة إلى داره وعبثا حاول رفيق أن يقنعه بالبقاء إذ يُحتمل حدوث هجوم بعد ذلك القصف المركّز على تلك المنطقة . فنُقل إلى المنزل على حمار وهو في شبه غيبوبة وحين رقد في فراشه ابتسم في رضى:

- راح أشفى ما دمت في بيتي وعلى فراشي أشم زهر البرتقال. ولو أن معظمه هرّ في العاصفة.

ومرّت به أيام قسية لا ترفض حماه إلا لتعاود الاشتعال وكان حين يصحو يصغي إلى لجب الرجال في حركتهم وحديثهم ومناقشاتهم فيرفع يديه إلى السماء متضرعا أن ينصر الله شعبه ويحمي عائلتـه ويعيد له ما اغتصب من بستان البرتقال.

وكان رفيق كثيرا ما يجلس قربه يسأله عن حاله، فيقول:

- يا ابني إذا الله أخذ أمانته مني هالأرض ما تفرطوا فيها. هذا امتحان من الله عز وجـل ليـشوف مدى إيماننا، إذا قلوبنا مخلصة كل الأرض اللي اغتصبوها منا بترجع لنا. عم يحلموا يبنوا هـيكلهم فوق صخرتنا!.. أما إذا قلوبنا خائنة الله لا يقيم شدة عنا.

كانت الظروف العامة عركة لا تلين وما تنجلي العتمة عن نصر حاسم يشرق فيـه حـق العـرب الفلسطينيين وتعود الأمور إلى مجاريها كما كانت قبل الوعد. ولكن الإيمان بهذا النـصر لـم يكـن ليتطرق إليه شك من أحد. الأمر لا يتطلّب أكثر من الصمود فترة حتى دخول الجيوش العربية التـي ستأخذ على عاتقها تكسير عظام حفنة الأوباش التي تعربد وتحلم أحلام السكارى الذين لا يـصحون وقد تملكهم رغبة امتلاك أرض الآخرين!.

مرت ليال دامسة ما تنضب مخاوفها، والرجال مترقبون ساهرون تهيأوا بما لـديهم مـن إمكانيـة محدودة ولكن لم يهاجمهم أحد وفرغت جرار الزيتون من البيت وهم ينتظرون. وكانت الأوامر التي تصدر إليهم من المركز الرئيسي أن يبقوا كامنين ولا يبدأوا أية معركة فبقوا منفعلـين بالأحـداث لا فاعلين لها. وكان غالب وماجد في المركز الرئيسي حيث كان أكثر تحصينا بسبب موقعه المـشرف على الطريق ويصد عدوانا أشد خطرا من المستعمرات القريبة ومن العصابات التي تلح المرة تلـو المرة لاختراق الحصار على يهود القدس دون جدوى.

ألح المرض على ابي غالب فاضطر رفيق إلى الذهاب إلى يافـا علـى حمـار بـسبب انقطـاع المواصلات ولكنه لم يجد طبيبا يغامر بالمجيء معه إلى ذلك الخط الأمامي. وحتى المستشفى خـلا تقريبا من الأطباء. أين اختفوا لا أحد يدري. كل شيء كان يسوده الفوضى والفرديـة ومـر رفيـق بالمركز إذ وجد نفسه قريبا منه واتصل بغالب وأخبره عن الوضع وكيف تم إخـلاء البيـت وعـن مرض والده وحدثه فيما حدثه عن فورتوني، فقال في ضيق الصدر:

- ما فيش مانع منساعدها تطلع. بس مش هلاق. نحن وين وهي وين؟..

وطمأنه بوجود قوة إلى الشرق مرابطة ستقوم بالنجدة لو حدث هجوم ونصحه بالتريث مع الانتبـاه إلى ما يجري في الناحية المحتلة من البستان. قال رفيق:

- ما صدرش من مزرعة إلياهو ولا طلقة. القصف كان جاية من المستعمرة.

- هلاق في قضية هامة أكثر شيء. أبوك إيش بدنا نعمل فيه؟..

- برأيي نحطه بشي مستشفى.

- كثير معاند ما بيطلع من البيت. وفي المستشفى ما فيش أطباء حتى.

- فيه طبيب ملتحق فيها، راح آخده وروح شوف بس مش اختصاصي وأنا عندي تبقى هون لنرجع. تشتري الدوا بدربك.

وعندما عاد غالب كان وجهه متجهما يثير القلق:

- أبوك فيه خطر عليه، معه التهاب رئوي حاد. بده عناية كثير.

- عم سخن شراب البرتقال وأعطيه، وأغلي له البابونج. وأخذت له حتى كاسات هوا. وحطيت لزقة خردل.

- ما بيفيد. خد هالروشيتة. معك مصاري؟..

- شوي.

- خد هدول. يمكن المسا بتوصل.

- مريت عالضيعة شفت شي أمك وأخوتك؟..

- مريت بالشباب المتطوعين شفت شو عاملين. يلعن دين هيك حماية. مكومين شوية حجار قاعـدين وراها. بس ما مريت ببيت سليم، كان طالع خلقي من قلة التنظيم وتبذير الخراطيش.

- حنان كثير رايدة تشوفك، بتلح عليّ كل يوم.

- منشان هالمراة، ما عندنا إلا شغلتها؟.. تستنى شوي الناس بالناس والقطة بالنفاس!..

عندما وصل رفيق بستان البرتقال كانت المستعمرة قد عادت لقذف قنابل الهاون، ولكـن المزرعـة المحتلة بقيت على صمتها وسكونها وكأن أحدا لا يسكنها. وتناهى إليه قصف مكتوم مقبض وأحـس بروحه سفينة بلا شراع في عاصفة مظلمة. كان الجو دفئا والنجوم مطفـأة وهـو يـسير المـسافة الغامضة التي يحيط بها روح التخلي.

تململ الرجال المنتظرون في المنزل:

- ليش ما بتيجي قوة من عندهم بدل ما نستنى يهاجمونا؟..

كان القصف قد ولّد توترا أخذ يزداد ولقد تركهم رجل بحجة ان زوجته تلد وآخر اختفى قبل الأوان دون أن يبدي الأسباب. وشعر رفيق بانقباض في القلب ثم نسي نفسه بعدها وعوّل على بذل أقـصى الجهد لجعل هؤلاء الرجال يصمدون ولا يهربون، قال:

- مش طالبين منا إلا الصد والعرقلة حتى 15 أيار منسلم مواقعنا للجيوش العربية. من إيش خايفين، البيت جدرانه من الحجار السميكة، صامد وحصين ضد أي هجوم.

قال أحد الرجال الخمسة الذين بقوا وهو سوري، وكان ثلاثة منهم من أهل المنطقة، وواحـد مـن جيش الإنقاذ، دمشقي في الثلاثين يدعى فضل الله والآخر من قوات الجهاد المقدس كان مكوثه مؤقتا ويقوم بالاتصال بين المركز وحامية يافا وحامية القرى الغربية:

- في رأيي هالقصف هو مقدمة لهجوم على الأغلب منشان فتح طريق يافا – القدس، مجنن اليهـود الحصار على القدس، مية وخمسين ألف منهم مهددين بلا أكل ولا شرب. جماعتنا معززين مواقـع، بس مواقع هامة تاركينها. وعددنا وذخيرتنا ما بتصد هجوم.

قال رفيق بلهجة مطمئنة وهدوء أعصاب:

- إن صار هجوم وما كفت ذخيرتنا منتخبى حتى تمر العاصفة. هي محضرين أكياس رمل، منحضر غيرها منسد الشبابيك منيح حتى تجي وحدات نجدة تجبر الهاجمين على الهرب.

في تلك الليلة قبيل الفجر وبعد أن هدأ القصف وإطلاق النار الذي استمر بشكل متواصـل بـضع ساعات في الليل تسلل رفيق نحو الحاجز يريد أن يحدد بالعين المجردة ما يجري في الجهة الأخرى من البستان وهل ثمة خطر ما أو تأهب من العدو. كان يحمل فانوسا صغيرا تحت معطفه ينيـر لـه بقدر طريقه، وكان يسير منحنيا مستغرقا خائفا من الصمت والنأمة والنور والعتمـة، وفجـأة شـعر باهتزاز الأرض حوله وتطاير حوله الغبار والتراب وشظايا حجارة وتملكه خوف كنم أنفاسـه ولـم يدرك إلا بعد لأي ما جرى لقد انفجرت قنبلة بين ساقيه ولكن قوة الدفع ألقته بعيدا فلم يُصب بـأذى وأطفأ المصباح وحمد الله أنه لم يسبب حريقا ما. لقد انهالت عليه كومة من التراب، وقام ينفض عنه التراب وهو في العتمة لا يدري بمكانه، وتحسس جيبه يحثا عن علبة كبريت ثم تذكر أنها كانت فـي يده حين حدث الانفجار. ويقي ساعة أو أكثر يسير في العتمة ويتحسس طريقه بين الـشجر دون أن يصل إلى البيت. وتلمس جدارا وبقي يتحسس ليجد الباب دون جدوى. ثم وجد أن أفضل شيء يفعله هو أن يستلقي ويتوقف عن السير حتى انبلاج النهار. وبقي يتطلع إلى السماء مستسلما فاكتشف أنـه ليس في محاذاة البيت ولكنه قرب الجدار. لقد كان يسير سيرا عكسيا ويظن نفسه يعود وهو يتقـدم. وفجأة كشف ضوء الصبح الغبش أمامه منظرا مروعا، شيئا بدا كالجثة. وخفق قلبه. قد تكون جـذع شجرة. واقترب منها. إنها جثة. كان الجسد مسجى على الأرض حليق الرأس.

وتقدم أكثر وتفحّصها. كانت متخشبة، ولم تكن جثة رجل كما ظن لأول وهلة بل امرأة ترتدي بنطالا حليقة الرأس جاحظة العينين كانت ممددة تماما تحت شجرة الليمون التي تفرد فروعها فوق الحـاجز

من الجانبين. وذكر حديث حنان عن تلك المرأة التي التجأت إليهم ليخرجوا بها من فلسطين. أتكـون هي؟.. وامتلأ قلبه بحزن ناهش وأدرك أنه يواجه عدوا بالغ الإصرار على عدوانه قد داس على كل إنسانية فيه.

كان وجه رفيق ممتقعا مصابا بخدوش من فروع الشجر حين بلغ المنزل ولم يصدق أبو غالـب أن رفيق يعود إليه سالما. لقد سمع صوت الانفجار ولما تأخر ابنه عن العودة استحوذ عليه الاعتقاد أنه قد قتل وجلس في سريره في حالة معنوية كئيبة يقرأ آيات من الكتاب الكريم تعينـه علـى احتمـال الصدمة التي توشك أن تلم به إذ ينبلج النهار ويعرف الرجال حقيقة ما جرى له. وكان دخوله كأنمـا وُلد من جديد، وحدّث الرجال بما رأى فعجبوا لما يكمن وراء هذه الجريمة، ولزم رفيـق الـصمت. ولكن أبا غالب الذي بلغ سمعه الخبر ذهل وتملكه حزن ثقيل. لم تكن أعصابه الواهنة لتحتمل عنـف الانفعال الذي عاناه منذ بضع ساعات فأجهش باكيا وأصر على التعرف إلى المرأة فنقلت إلى سـاحة البئر. وتأكد من هويتها وانفطر قلبه أسى:

- التجأت المسكينة إلنا نطلعها من البلد. طردتها. فكّرتها عم تتجسس علينـا مـدري شـو قـصتها مسكينة، ادفنوها، مش لازم نتركها بره. يمكن صار لها أكثر من يوم بكره بتطلع ريحتها.

قال أحد الرجال:

- عندي ندفنها جنب الجدار. القنبلة عملت حفرة هناك.

فقال أبو غالب:

- فيه هون حفرة قريبة كنت أدفن فيها السلاح وقت الإنكليز كانوا مشددين علينا، أحسن ما ترحـوا هناك يمكن يفاجئوكم.

ودفنت فورتوني في حفرة السلاح قريبا من الساقية.

* * *

كان آمر المدفعية في جيش الإنقاذ نائما على الأرض وقد جعل من مسند المدفع وسادة له، فأيقظـه جندي مُرسل من القيادة وأخبره بأن آمر الفوج يطلبه.. هب واقفا وفرك عينيه جيـدا واسـتعاد فـي لحظة حيويته وانتباهه رغم الإرهاق المتواصل الذي يفرض عليه القيام بمهمات كثيرة جبارة بعـدد محدود من المدافع والرجال في جميع أرجاء فلسطين، فهو ينتقل من مكان إلى آخر كومضات الخيال أو كهبوب الريح تنقضّ من كل اتجاه لما تملّك من عناصر السرعة والمفاجأة.. وحين وصل مركـز القيادة في نابلس كان هناك عدد من ضباط الكتائب قد سبقوه إلى الاجتماع.

فعلم أن مهمة جديدة تنتظره بالرغم أنه لم يمض بضع ساعات على انتهائه من تنفيذ المهمة السابقة ولم ينفض عنه غبار التعب بعد. قال آمر الفوج وهو يشير بإصبعه فوق الخريطة أمامه إلى الـسهل الذي يمتد بين طولكرم وتل أبيب:

- سترافق الفوج لنجدة يافا.. يكون التجمع في طولكرم وتذهب في هذا الطريق.

كانت الخطة قد رُسمت قبل مجيئه فاستغرب من آمر الفوج تعريض الجنود لأي مخاطرة كبيرة لا ضرورة لها، فقال:

- ولكن لم تختار هذا الطريق المليء بأعتى المستعمرات؟..

- أعندك طريق أفضل؟..

- طبعا، أن يكون التجمع في رام الله، ونسير في أراض عربية آمنة، يسيطر عليها رجـال الجهـاد المقدس، ولا نواجه إلا خطرا واحدا عند مستعمرة "يازور" على باب يافا.

أكبّ آمر الفوج برأسه الضخم وجسمه الضئيل على الخارطة وتمعّن فيها، ثم قال محتجا:

- هذه طريق طويلة وليس عندي بنزين!.

وأثار ذلك الجواب اللامبالي غضب آمر المدفعية فقطب جبينه وتدافع الدم إلى وجهـه وتلاحقـت ضربات قلبه وشدد قبضة يديه:

- هل عندك إذن دماء كثيرة تهرقها؟..

- إن لم تشأ الذهاب مع الفوج فلا تذهب أنت!..

كان الغضب قد بلغ من آمر المدفعية مبلغه فتمددت فتحتا أنفه وأصرّ على أسنانه واحـتقن وجهـه حتى غدا داكنا وأخذ يضرب على الطاولة بجمع يديه:

- أتقول هذا القول لي؟.. هل أنا خائف من مرافقة الفوج؟.. إنني أول من يذهب في المهمات وأنـت تبقى في المؤخرة.. ولكن ما المبرر للمجازفة؟.. حياة المتطوعين رخيصة عندك؟.. كلنا تطوّعنا لأن الكرامة عندنا أغلى من الحياة.. كان من الممكن أن نبقى في بلادنا ولا ندخل معركة، وليس من أحد يفرضها علينا.. إنني أومن بالتضحية ولا أومن بالهدر!.

- لماذا تتطوع إن كنت تحتج على آمرك؟..

- أحتج إن رأيته على خطأ، ورأيت أمره يكلف تضحيات لا مبرر لها، ومع ذلك لـن أتـأخر عـن المهمة إن أصررت على تنفيذ أمرك.

وكان الضباط قد ساءهم من آمر الفوج روح المغامرة والاستهتار بحياة المتطوعين، ولكنهم خشوا الاحتجاج، فلما بدأ آمر المدفعية بإثارة ذلك الجدال ساندوه في ثورته على آمر الفوج فغيّرخط السير. ولم يلبث ذلك الفوج بين عشية وضحاها أن أصبح على أبواب "يازور" فأسكتها بالمدافع. وتملك آمر المدفعية الحماس، وتل ابيب على قاب قوسين أو أدنى منه، لو أن لديه عددا ضخما من القنابل يلقيها، فمن ينجي هؤلاء المغتصبين من قبضة يديه!.. لقد كانت البادرة الفردية أساس المعركة. ولم يشأ أن

تفلت منه تلك اللحظة التاريخية وهو على أبواب تل أبيب.. سيلقي في نفوس أهلها الذعر قبل أن يسلم الفوج ويعود فيدفعوا ثمن غدرهم في دير ياسين.. وهتف بجنود كتيبته:

- سنقصف تل أبيب، وكر الجريمة والجبن والغدر.

وألقت مدافعه القنابل.. خمسمائة قنبلة!..

كانت تلك القنابل هي التي أجفلت عائلة أبي غالب وجعلتها تترك منزلها الى القرية المجاورة.. ففي تلك المعركة المتشابكة لم يكن تعرف القنابل الصديقة من العدوة.

ولكن الأمر لم يلبث أن انتشر في القرية حين قدم رفيق وأخبر حنان بأن تل أبيب تُقصف، فأحست بموجة طاغية من الفرح تنفجر في أعماقها وتضيق به، فتدمع عيناها.. سـتنتهي هـذه المـسرحية الدموية إلى انتصار الحق وهزيمة العدوان، وتستأصل من جسم فلسطين قرحة الإدّعاء الفاجر واللؤم، وتشرق بالصحة والعافية والسلام أرض لم تُخلق إلاّ للسلام.

ولم تملك حنان نفسها، حين أضاف إلى ذلك الخبر المفرح، قصة فورتوني المفجعة أن تبكي. لقـد أمضّها شعور حزين مبهم تملك نفسها وشد أعصابها بصداع أليم طوال النهار وهـي تفكـر بـأنهم شاركوا فيما جرى بطريقة غير مباشرة. ولم تستطع أن تقتلع من ذهنها فكرة "لو" حتى كان صـباح اليوم التالي:

أفاقت عند الفجر على أزيز رصاص قريب، فأخذت ترتجف ولم يلبث أن أفاق كل من في الكوخ.. لم تكن لتستطيع أن تشاهد وجوه الأخريات أمها وفضة وضرتها، أو أخويها.

كان قلبها يدقّ بسرعة وعنف موجعين كأنما له أجنحة تلطم قضبان صدرها، ثم أخذت ترتجف من قمة رأسها إلى أخمص قدميها.. كان ذعرا لم تحسّ به من قبل، ولكن مثل دير ياسين جعلها تتصور أقسى الفروض.. ربما كانت النهاية.. قرية عزلاء سهلة الفتراس.. وأعول إبن فضة الصغير فأخذت

أمه تهدئه بصوت مرتجف.. كان كل فرد يخشى أن يصدر صوتا كأنما سينم عن مكانه ويصبح هدفا لوابل الرصاص والقنابل.. وسمع خوار البقرة المذعورة خارج الكوخ فوجدت فضة صوتها لتقول:

- الله يأخذهم.. جايين قبل طلعة النهار.. كنت قايمة أحلب البقرة وخض الزبد.. خايفة يقوم يهـرب حليبها.

وضحكت حنان وأحست فجأة بالراحة وهدأ روعها ووجدت نفسها تتثاءب مرة وأخرى وثالثة:

- الواحد بها العتمة مش عارف حاله، مربطة إيديه.

فأجابت فضة بلهجة واثقة:

- بسلامة الرجال اللي بيدافعوا عنا.. أنا مش خايفة.

وقالت ضرتها:

- مش خايفة!.. والله أنا وقّف شعر رأسي ونشف دمي.

- وأنت يا أم غالب؟.. وينك ما سامعة لك حس؟..

وأجابت أم غالب بصوت ضعيف:

- هون، هون، هون.. دخيلكم حاسة قلبي على شعرة.

كان واضحا أن المعركة الدائرة بين رجال القرية والعدو قد أشـرفت علـى نهايتهـا عنـد تـبلج الصباح.. وكان يسمع في الكوخ همسات مبتهلة وعويل أطفال وأصوات زاجرة متوترة وأحست حنان بالانقباض ينهش قلبها وأزيز المدافع الرشاشة يقترب عن بعد دون أن يكون هناك رد مقابل وتحفزت أعصابها استعدادا للخطر المقبل.. ماذا يخبئ هذا اليوم المشؤوم؟.. الرجال يخوضون الدم، النساء في عجز تام.. لن يعاني حامل السلاح قلق الأعزل وذعره وخياله المتأجج بأفظع التـصورات.. وهـدر صوت من مكبر قريب:

- أخرجوا يا أهل القرية.. معكم نصف ساعة، أخرجوا وانقذوا أنفسكم.. سنهدم القرية فوق من بقي.

وأسلمت حنان نفسها لمصيرها.. إن أمرا رهيبا قد حدث.

وأخذت فضة تعول وقد أحست بحدس مبهم أن العدو قد يكون دخل القرية على جثة سليم ورفاقه.. وسمع صياح وعويل في الخارج.. كانت الأكواخ ترتعش بنحيب متشنج والخطر الرهيب جاثم فوقها. وارتدى الجميع ثيابهم وأحذيتهم، وكانت حنان تمسح دمعها وهي تشيح بوجهها وتأخذ نفسا طويلا كي تخفف القصة التي تخنقها، وحين خرجوا كان جمع غفير من أهـالي الأكـواخ يحملـون أولادهـم وأمتعتهم، ودجاجاتهم التي أخذت تقوقئ مذعورة، وكان بعضهم يجر ما عنده من غنم. والجميع فـي حركة عصبية هائجة وقد علت وجوههم الكآبة والشحوب وبدت عليها الغضون، حتى تلـك الوجـوه الشابة والطفلة كانت منكمشة بتعابير الأسى وكأنها تهم بالبكاء.. وأحست حنان بثقل الهـواء كأنمـا فقدت رئتاها القدرة على التنفس واختنق صدرها بزحير حاد.. ولم تملك نفسها وفضة تولول:

- وين رجالنا تركونا؟.. يا حيف عليك يا سليم كنت ظن إنك زينة الرجال.. أخص عليك تتركنا يـا قليل المروءة.

ونهرتها ضرتها:

- نحن عارفين هو حي ولا ميت؟..

فأجهشت فضة بالبكاء، وازداد عويلها كأنما تشعر بأن نكبة حلت بها:

- ما أنا عارفة سليم ما بيتركنا إلا إذا صار عليه شي..

وعادت ضرّتها إلى نهرها:

- حاجة يا ولية تفوّلي عليه!..

وشدت فضة رأسها إلى الوراء كأنما تربأ بسليم أن يكون على جبن ونذالة، وحدجت ضرّتها بنظرة حاقدة كأنما تمقت منها أن تظن بسليم الظنون، وقالت بكبرياء وقد توهجت عيناها المضرّجتان بلهب غريب:

- يعني لو عرفت أنه انهزم بحسبه عليّ رجّال؟..

هدر صوت المكبر مرة أخرى:

- تجمعوا في الساحة!.. هيا تجمعوا في الساحة!..

وسمعت حنان خلفها صوتا متهدّجا لرجل طاعن:

- ياناس أبقوا في بيوتكم بدهم يجمعوكم ويذبحوكم مثل ما عملوا بدير ياسين.. والتفتت حنـان إليـه فرأته يضع يده على رأسه ويشير بالأخرى إلى ناحية الجامع، وقد أبكمته المفاجأة، والتفـت الجميـع حيث أشار فشاهدوا جنودا شاهرين بنادقهم ورشاشاتهم، وصاح صبي حين شاهد من الجهة المقابلـة جماعة أخرى من الجنود محتمية بدار المختار.. وساد الهرج وسمعت حنان صوتا نسائيا يقول:

- توزّعوا يا ناس ما تتجمعوش.. الدبابات مصوبة مدافعها علينا.

لم تكن حنان قد شاهدت الدبابات التي تخفيها أشجار الصبار بعد، وأدركت أن القرية مطوقة، وليس هناك من مهرب.

وتوجّه الجميع إلى الساحة وحنان تمسك بأخويها، وأمها تلهث قربها وقد بدت شاحبة وكأنها علـى وشك الإغماء.. لقد أعدت حنان نفسها لمواجهة كل احتمال، ووقفت تحدج الشرزمة المـسلحة وهـي تصرّ على أسنانها وتشدّد قبضتها على يدي أخويها دون وعي، بينما أخذ الصغيران يقرضان أظـافر اليد الطليقة وهما يلهثان.

ولكن يبدو أن المسرحية في تلك الجهة لم تكن تحتاج إلى العنف الذي جرى في دير ياسين!.

تقدم بضعة رجال حليقين مسلحين متوتري الأعصاب وجرّدوا النساء من أقراطهن وما بقي لهن من حلي قليلة، ووضعوا أيديهم على الدواجن والأغنام، ولما أتموا عملية الاستيلاء على ما هو ثمين لدى هؤلاء البائسين أطلقوا رصاصهم لبث الرعب، فتفرق الناس أوزاعا، هنا وهناك، يتراكضون في كل اتجاه، وتعالت الولولة وتبعت حنان ذلك القطيع المذعور وهي تحث أمها على الإسراع، وقربها فضة تحمل إبنها الصغير على ظهرها وتعنف في لومها سليم وتخاطبه بصوت مرتفع كأنمـا مُـسّت فـي عقلها:

- وين رحت انهزمت يا خايب؟.. وين خبي وجهي من أهلي يقولوا سليم مش رجّال.. ويـن بـدنا نروح هزمونا من ديارنا شافونا كومة نسوان؟..

كانت الأرض حجرة ممتلئة بالأشواك، ترتفع بثبات نحو تلال رملية، وقال قائل وقـد ارتـد إليـه وعيه:

- وين رايحين يا جماعة ما فيش ضيع قريبة.

وقالت امرأة وقور في منتصف العمر:

خلونا نرجع للطريق العام ياخد كل واحد الوجهة اللي عايزها عند قرايبينه، أهله.

وقالت ضرة فضة بصوت منتحب:

مالناش قرايب ولا أهل.. لو صار على سليم شي بدي دور على البواب.. مرا مقطوعة.

وهوّنت عليها فضة بقولها:

- ما المقطوع إلا الشيطان، أنا مروحة "لضيعة بيت نبالا" عند أهلي، روحي معي، في الشدايد الغربا بيصيروا قرايب.. آكلين سوا خبز وملح.

وتوجهت أم غالب إلى رجل توسمت فيه الشهامة بين الجمع، وقالت بتضرع:

- خلونا نرجع لبيتنا الله لا يقطعكم، موتة في بيته الواحد رحمة..

- على طريقنا يا أم غالب المفرق.. بتتوجهوا للغرب الطريق دغري.

وبدأت حنان تحس بالتهاب النتوءات في أصابع قدميها من الركض في ذلك الطريق الوعر وخيـل اليها أنه ليس من نعمة تعادل بلوغ مأوى ترتاح فيه وتخلع الحذاء من قدميها.. وعاد الجميع أدراجهم نحو الطريق العام وإذا بهم يسمعون صوت انفجار الديناميت يصك أسماعهم وتهاووا إلـى الأرض.. كانت القرية تُنسف والأكواخ تتهدم ويشتعل فيها الحريق، والدخان ينتشر ثم يحجب كل شيء وولولت النساء والأطفال، وحث الرجال على رؤوسهم التراب، وكان هناك من يهز الرأس يمنـة ويـسرة، وارتفع صوت امرأة معولا وقد ذكرت أنها نسيت في الكوخ دجاجاتها:

- انشوت يا حسرتي عليها!..

وقالت لها فضة:

- إذا كنت عم تبكي عشان جاجات، نحن تركنا بقرة بحالها، رجالنا ما منعرف انهزموا وفقدانهم ولاّ ماتوا وفقدناهم، يا مصيبة إلها أول ما لهاش آخر.

وكأنما لمست فضة وترا مشدودا في صدور النسوة فأخذن بالعويل، وتعالى صوت واحدة منهن:

- يا أكواخ كانت ساترتنا ملناش اليوم كواخ.. يا شجر كان يفيينا ما في بعد اليوم فية شجر.

- حاجة تبكوا إحمدوا الله بقيت الروح سليمة.

- بكره الجيوش العربية بتدخل، بترجع الضيعة، منبني بيوت حجر بدل الكواخ.

- يا رجال إمشوا انضموا للثورة!..

وقالت فضة بنغمة لوم مرير:

- لو كنتو انضميتو من الأول ما غلبناش غالب.

- من وين السلاح يا حرمة؟..إن كان سليم قدر يدبر حاله منين ندبر حالنا؟.. عايشين من قلة الموت، مصّونا ما خلوا نقطة دم فينا.

ولكن فضة استمرت بلهجتها اللائمة الغاضبة دون أن تعيره انتباها:

- بتترددوا، بدنا، ما بدناش.. إيش نابكم إلاّ خراب بيوتكم؟..

- بيجوا آخر دقيقة.. تعال حارب.. مثل هديك الحكاية، اليوم بدك تحملي، واليوم بدك تولدي، واليوم بدك إبنك يصير شب يحكم المملكة.. تعجيز بتعجيز.. قلنا طيب هاتوا سـلاح، قـال انتـو اشـتروا سلاح.. شو منحارب بأظافرنا؟.. نحن، أكل مش عارفين نطعمي عيالنا.

وذكر إبن فضة الأكبر أنه لم يفطر وأنشب فيه إحساس الجوع بعد أن زالت عنه وهلة الفزع:

- جوعان يمّا.

فهزّته غاضبة: استنى لما سليم يبيع بارودته يجيب لك فيها أكل.. يا خيبتكم يا رجال!.. يا ريتنـي كنت أنا رجّال!.. يا حيف عليك يا ضيعة أكلتك النيران.. كنت تطعمينا وتستري علينا.. ما عاد إلنـا غير قبة السماء الزرقاء، والشرشحة على الأبواب.

كان أهل الضيعة يسيرون جماعات متفرقة منهم من يتقدم، ومنهم من يتأخر ومنهم من اختار منـذ البداية طريقا آخر في ذهول وروع المفاجأة. ولم يلبث أن صدرت ولولة من المتقدمين الذي كانوا قد بلغوا الطريق العام من الجهة الجنوبية الغربية، فتسارع الآخرون نحوهم ليعرفوا ما الخبر، وتملكـت حنان الرعشة ووخزتها بصيلات شعرها كأنها الإبر.. وأنزلت فضة إبنها عن ظهرها وقد جحظـت عيناها وغاب وعيها، كأنها تتصرف تحت تأثير مغناطيسي وركضت لا تلوي على شيء.. فحملـت حنان الطفل وتبعتها، كان الصغير يبكي ويبعد عن نفسه السائل الذباب الذي يضايقه. ولم يكن لصغره يدري ما يجري حوله.. تركته أمه فبكى، وحملته ذراع أخرى فصمت لا يريد إلاّ أن يشعر بـضمة

عطف. ومسحت له حنان أنفه فارتاح وتطلع نحوها بعينين دهشتين.. كان هناك وراء التلال الرملية حيث ينمو عليها شجر الصبار، جثث متناثرة للمقاتلين من أبناء القرية وكانوا عشرة بينهم سليم!.

الوقت ضحى والشمس ساطعة، والذباب في وليمة قد تجمّع على الدم الذي انبجس من فـم سـليم. وسمّرت عينا فضة على الرجل الذي كانت تشتمه منذ لحظات، ولم تبك ولم تولول ولم تحن قامتهـا الهيفاء النحيلة، بل بقيت كشجرة الحور منتصبة مهيبة. ولم تدر حنان أكان في لهجتها فخر أم فجيعة أم لوم مرير:

- ولك هيك بتموت الرجال!.. هلق برفع راسي قدام أهلي بقول سليم راح شهيد.

ولكن إرادتها لم تسعفها طويلا فأخذت تتمايل يمنة ويسرة، وصدرها يلهـث وشـفتاها اليابـستان تلتقطان الهواء بصعوبة: مش صحيح يا سليم، مش معقول تتركني وتـروح، ملهـوف علـى مـين هناك؟.. آه، نمت وسكّرت عيونك وبعدت عن هموم البشر.. ما بدك تشوف الضيعة تحترق ولا بدك النار تكويك!.

وتنهدت حنان وهي تحس بالاختناق.. كان حزن فضة غريبا عليها لا يشبه حزن غيرها في ذلـك اليوم الفاجع، لم يكن هستيريا كاللواتي كن يلطمن صدورهن كي يهيجن آلامهن، ولم يكـن صـامتا ساحقا كذلك الذي أصاب زوجة سليم الأولى التي جلست مقوسة الظهر منكمشة تحضن إبـن فـضة الأكبر، كانت منسية، ولقد كفّت منذ زمن بعيد عن أن تكون مدار اهتمام أحد، ونمت فيها عواطـف الأم لأطفال ليسوا منها، وأشبعت فيهم أمومتها.. كانت لمستها لهم تشبه التقديس، وكانوا متعلقين بهـا أكثر من تعلقهم بوالدتهم، وكان سليم هو الذي يجعل تلك العلاقة تتماسك، فماذا يكون مصيرها بعد أن سقط ذلك السند؟.. لقد أعطت ذلك البيت كل ما لديها، وهي في شيخوختها تتقطع الأسباب بينها وبين كل ما كان يربطها بهذا العالم. لم يكن لها عزاء في طفل ولا أهل، ولم يكن لها القوة علـى العـيش

بعملها فكانت تشدّ على الصغير كأنما تشدّ على أمل هارب، وكان الصبي قد أفاق من ذهوله فـانفجر باكيا، على حين غرة.. فانحنت فوقه وقالت:

- لا تبك يا مصطفى.. الملايكة بتجفل من البكا..

ونظر الولد بعينين مندهشتين:

- وين الملايكة؟.. مش شايفهم.

- ما بتشوفهم بس هم بيشوفوك.. بيغنوا للشهيد، بيحملوا روحه، وبيطيروا للـسماء وهـو فرحـان، وروحه بتهدل مثل الحمام.

والتفتت فضة إليه وشفتاها ترتجفان:

- مش حيرجع إطّلع يا مصطفى مليح، اللي بيموت ما يرجعش.. إطّلع ع أبوك وتذكره بكـره لمـا تكبر.. بتكون إبن حرام إن خليت دم أبوك يضيع..

وأخذت تحسر عن صدرها وهي ترتعش وتعريه وترفع حلمتها إلى السماء وقد أخذها ذهول كمـن يتصرف في غيبوبة:

- ربي وأنا فاتحة إلك صدري تنتقم لسليم وللضيعة اللي أكلتها النيران.. ربي إسمع دعا مراه انهـد عمود بيتها، وتيتموا أطفالها، إنتقم منهم يا الله، خلي فلسطين مقبرتهم. يتّم أطفالهم ورمّل نساءهم يـا الله يا إلهي.

أبرقت عينا إبن فضة الصغير ومطّ جذعه، ومد يديه حين رأى ثدي أمه العاري، كـان يريـد أن يرضع ولجّ بطلبه باكيا دون دموع، "بدّي زيزي، بدي زيزي" ونصحتها نسوة أن لا ترضعه ودمهـا فائر بسموم الحزن والغضب، ولكنها عصرت ثدييها مرات ثلاث فنفر الحليب المحـتقن، وتناولـت الطفل وألقمته حلمتها وهي تتربع على الأرض وتجهش بالبكاء.

* * *

كانت حنان جالسة قرب سرير والدها الذي يغطّ في نوم عميق بتأثير الحمى.. إن وجنتيه تغـوران وشعر لحيته يطول، ولكن وجهه يكتسي بنورانية عجيبة، وفمه ترتسم عليه ابتسامة راضية..

وفتح عينيه ثم أغمضهما ثم عاد لفتحهما وبقي لحظة ذاهلا كأنما يستعيد في خاطره أمـرا يـبهج روحه، ورنا إلى حنان، وقال:

- لقد حلمت حلما جميلا، كأنني في الفردوس وقائل يقول لي: هذا القصر لك بمـا صـبرت علـى زوجتك ولم تضارّها.

وابتسمت حنان في توجّع ثم سألته مداعبة:

- أصبرك على أمي يستحق قصرا؟..

- طبعا!.. أنت لا تدرين عمق العذاب الذي كنت أحتمله منها، لقد أحببتها وكنت بحاجة إليها وهي لا تحسّ بي.

- إنها الظروف.. قسوة الحياة لا تجفف العاطفة ولكنها تجعلها تنكمش في الأغوار، ولا بد أنها ستفهم أنك لم تكن مسؤولا عما حلّ بنا من خراب.

- لم يعد يهمني أمرها، لم تقف بجانبي في شدّتي بل كانت مع الدهر عونا عليّ.. إن الإنسان يحتمل قسوة العالم الخارجي بشجاعة إذا بقي له الملجأ الحنون في عالمه الداخلي. كل شيء لم يعد له مـن فائدة اليوم.. لقد تحطم وأعلم أن منيتي قربت.

وتهدّج صوت حنان بالانفعال:

- لا تقل هذا يا أبي، بعد عمر طويل.

- يا بنيتي، أقول لك أنني أشعر بدنو أجلي.

- أبي، لا يجب أن تهدم هكذا غريزة الشفاء بهذا اليأس.

- إنني معلق إلى هذه الحياة بشعرة، وهذه الشعرة هي أنت، أنت الوحيدة التي تحبني.

- ليس صحيحا يا أبي أنني وحدي.. الكل يحمل لك نفس العاطفة.

- يا بنيتي، أخشى أن لا يطول بي العمر فاسمعي نصيحتي.. لا تكوني كأمك.. أحبي زوجك بكـل طاقتك وثقي به، حتى لو أخطأ، حتى لو فشل. هناك حديث شريف يقول:" لو كان الخضوع لغير الله ممكن في الإسلام لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها." يا بنيتي أطيعي زوجك في كل ما يطلبه منك لئلا تسلبيه رجولته واتزانه وقدرته على النجاح!.

- سأعمل بنصيحتك يا والدي.

- يا بنيتي، أعطني ورقا وقلما أريد أن أكتب وصيتي.

- أية وصية؟..

- أريد أن أوصي لماجد بثلث البستان المتبقي. وبنصفه الآخر الذي غدا في حوزة ذلك اللص إلياهو بعد أن يتحرر.

وابتسمت حنان ابتسامة حزينة:

- ليس من ضرورة لتوصي بشيء يا والدي. ما من أحد يطالبك بشيء إلا أن تشدّ قواك وتتعافى.

- بل يجب.. الدنيا فيها موت وحياة، وأريد أن أخلّص ذمتي.

- هذا سابق لأوانه، يا والدي.

- ما عليك، هات ورقة وقلما!.

- ماجد لا يعاملنا كالأغراب، وقد يرفض. وأنا لا يحق لي أن أرضى بشيء دون إرادته.

- ما عليك.

- يا أبي، إصرف النظر عن هذا في الوقت الحاضر. أنت تتحدث كأنما نحن في أمان، وكأنما نستطيع أن نقول: هذا لنا، بعد أن خرج من أيدينا!

وبدا عليه الانفعال، وأخذ يلهث ويصرّ على أسنانه في غيظ استهلك جميع قواه، وهو يحاول أن ينصب جذعه. وبدا كأنه لا يفقه كيف لا تكون الأرض التي أُخذت بالحرام، وبالمكيدة، وبتآمر الإنكليز عليه ملكه؟.. فليس بينه وبين إلياهو عقد بيع.. هو لم يبعه، ولم يعطه شيئا. أُخذت الأرض رغم إرادته وستحرر. فلمن تكون بعد تحريرها؟..

وتمتم بوهن:

- إن ضيقنا لن يدوم طويلا يا بنيتي، إن علينا فقط أن نتحمل أوجاعنا حتى ينتهي أمد الانتداب وتدخل الجيوش العربية!.

وتنهّدت حنان، لم تكن قد أخبرته بما حلّ في القرية المجاورة.. وهو على حاله من وهن القوى.. كان الوقت عند الغروب والنوافذ مدهونة بالأزرق لمنع اختراق الضوء، وكانت شمعة تلقي نورا خافتا على وجه أبي غالب الذي أنهكه الانفعال فبدا شاحبا متراخي العضلات، وخُيل لحنان أنها تسمع ضجيجا في الخارج كأنه وقع أقدام فهبت عن مقعدها وأصاخت سمعها وقلبها يطرق بعنف. وأحست فجأة كأنما توقف الدم في أوردتها وشراييتها ولطم وعيها فشلّ حركتها، وبلعت ريقها بصعوبة، وهي تشعر بلهاتها وقد تضخمت وسدت مسالك تنفسها.. أخذت عشرات الأيدي تطرق الباب وتنادي، فتنفست حنان الصعداء، وتراخت أعصابها المشدودة حين سمعت الأصوات الأليفة لجماعة من الفلاحين فأسرعت تفتح الباب لترى ما بهم، وحاولت الجموع اقتحام البيت، من يريد ماء ومن يريد طعاما، فرجتهم أن يبقوا في الخارج لأن والدها مريض سألتهم عن خطبهم فأخبروها أنهم جماعة من سكان القرية المنكوبة وأنهم وجدوا القرية التي التجأوا إليها محتلة تعترض الطريق إليها الحواجز،

وخلفها جنود العدو يصوبون نحوهم البنادق ويأمرونهم بالعودة. وأنهم سيبيتون الليلة تحـت الـشجر ويرحلون في الغد إلى يافا عن طريق جانبي غير مطروق.

وكانت مؤونة البيت على وشك النفاذ، جرار الزيتـون خاويـة، وآثـار المربـى متيـبس علـى القطرميزات الفارغة، ولم يكن هناك سوى طحين وبعض أنواع الحبوب. وأشفقت أم غالب علـيهم، ثلاثة أيام يمشون ويعيشون على الحشائش. كانوا منهكين يترنحون وأطفالهم يتـضورون ويعولـون بصوت واهن كئيب. وعادت أم غالب بكيس كبير من الخبز اليابس وسطل ماء يسدون بـه أودهـم وسغبهم، ريثما تهيء لهم خبزا طازجا. ودخلت الدار بضع قرويات وأخذن في العجن والخبز علـى الصاج. وكان منظرا يبعث على البكاء والابتسام في آن واحد للطريقة الملهوفة التي تختطـف فيهـا الأرغفة وتوزع، فمن المستحيل إشباع ذلك العدد الغفير الذي فقد وسيلة العيش. ولم يكن مـن أحـد يدري ما المصير الذي سيلاقونه في يافا، ولكنهم كانوا يريدون الوصول إلى مكان مأهول بأي حـال دون تفكير في الغد وما لبثوا أن تناثروا تحت الشجر وناموا وتطوّع عدد من الرجال_لمساعدة جماعة صغيرة من متطوعي جيش الإنقاذ أرسلت لحراسة المداخل.

وفي داخل المنزل لم يكن من أحد يخلع ثياب النهار خوف الطوارئ. وقد أعدت أم غالـب كيـسا كبيرا ملأته بالحاجات الضرورية، وجاء رفيق لينام بعد أن قام بدوره في الحراسة، ونصح الجميـع بترك المنزل ومرافقة الفلاحين إلى يافا. حاول إقناع والده:

- إن تقدير الضابط الذي معنا أن العدو يضربنا الآن في النقاط الضعيفة، في القرى العزلاء، بعد أن فشل في كل محاولاته على طريق القدس. ويجب أن تُخلى المنازل المتطرفة خوف الهجوم عليها. فلا ضرورة لضحايا لا مبرر لها.

وقال أبو غالب:

- يا بني، لو مشيت إلى آخر البستان أهبط.. لتذهب أم غالب والأولاد إلى منزل أم ماجد ريثما تفرج على الناس.

- سأدبر لك حمارا من الجوار، ويتاح لك أن تكون تحت إشراف طبيب هناك، فقلقنا عليك يربكنـا، وليس من طبيب يرضى بالمخاطرة والمجيء إلى هنا.

اكتسى وجه أبي غالب بمسحة رقيقة من أمل مهزوم مستسلم:

- لن أتحرك من فراشي وليقض الله في قضاءه!.

وأصرّ على تلك الرغبة رغم كل إلحاح. وتملّك حنان إحساس مبهم بأنه غير راغب في بـذل أي مجهود لإنقاذ حياته. ولوى ذلك الشعور قلبها بكآبة خرساء. كان يعيش حياته حالما، ولكن الحلم غدا كل ما يفكر فيه في تلك الأيام. قال لحنان بعد موهن من الليل وقد نام الجميع وهي ساهرة قربه:

- يا بنيتي، أذكر حلما شاهدته منذ ستة أعوام. ليعطني الله خير هذا الحلم.

- يا أبي، تذكر أحلامك أكثر مما تذكر واقعك.

- إنه حلم تنبؤي ليس كالأحلام. خفت منه فلم أذكره لإنسان. إنه يسيطر عليّ سيطرة ملحّة.

- ليس للأحلام مدلول تنبؤي يا أبي، ربما تكون مخاوف الإنسان الغامضة، أو لعلها تكون أمانيه، أو تكون أي شيء إلا أن تدل على المستقبل.

- لا تكوني ضالّة يا بنيتي.. إنك ترفضين أشياء ثابتة. الحلم آية من الله، ليست كل الأحلام، ولكـن تلك الرؤى الصافية!.. وليس كل الذين يحلمون تصدق رؤاهم.. ولكنني رجل صالح نقـي الـسريرة مؤمن بربي، وكثيرا ما صدقت رؤاي.

وحدثها برؤيا الحريق، وأردف:

- قد تمر بنا محن شديدة، إنها حرب.

- شيء طبيعي أن تمر بنا محن، ولكن حتى الآن نحن الذين نسيطر على الموقف كما فهمـت مـن رفيق. المستعمرات الخمس على طريق القدس نحن نحاصرها، في معارك " بـاب الـواد " دمرنـا خمسمائة دبابة حتى الآن.. كل الحملات لفك الحصار عن يهود القدس قد باءت بالفشل.. ليس هنـاك من اتصال بين يهود تل أبيب والقدس.. أما نحن فالنجدات تصلنا.

- يا بنيتي، ليمحو الله ما كُتب لنا من قدر سيء.. أنا لست كثير الاطمئنان في الواقع.. لماذا لم تسلم الجامعة العربية الثورة الفلسطينية إلى المفتي؟.. لماذا ينصبون فوزي القاوقجي قائد جيش الإنقاذ وهو والمفتي على غير وفاق؟.. إنني أرى أنهم يعزلون الثورة الفلسطينية ويجعلونها متفرجة غير فعّالـة ولا منتظمة. لم يتركوا للمفتي سلطة، وكل فئة من الثوار الفلسطينيين تعمل بمفردها وتتخبّط، أتـرى الجامعة العربية تريد أن تسلمنا أخيرا ل "جلوب باشا" يحمينا؟.. وهزت حنان رأسها موافقة:

- الحلم يعاودني ذكراه، ويجعل مخاوفي تكبر وقلبي يتوجّع بشكل لا أتحمله.. لو كنا نتمسك بإيماننا لما خشينا الامتحان.

ولم تنبس حنان بكلمة، إن عالم والدها خاص، ولا يمكن تبديله ولا يمكن الجدال فيـه.. إن كلمـة الإيمان كلمة غامضة مطاطة، وتعني عنده كل شيء وقد لا تعني أحيانا أخرى أكثر مـن شـكليات الفروض. كانت أكثر تفاؤلا منه في أعماقها بالنسبة للوضع العام ولكنها خائفة مـن أجلـه.. رأتـه مستسلما لقدره، قانعا به، وأنها أعجز من أن تبذر في قلبه حب الحياة كما ينبغي، فقواه موجهة لعالم آخر عاش فيه أكثر مما عاش في دنياه.. وخطر لحنان أنه خُلق ليكون منسجما في عالم مستقر لا في عالم مضطرب فقد عاداته القديمة، ولم تتكون له عادات جديدة تناسب واقعه.. ودّت لو تقول له: "كف عن الغيبيات واعرف مكامن ضعفك وقوتك، وحرر نفسك ولا تجعل سلطانا لغيـر العقـل عليـك"،

ولكنها لم تر فائدة من تغيير إنسان يغرب.. بل لو ملكت الأسباب لهذا التغيير لما شاءته بالرغم مـن قناعتها باستحالته، إذ ليس لديها من أمل تعطيه ما يوازي ما تسلبه منه.

عاش مع الحلم والحلم يعزيه، والحلم يخفف عذابه، والحلم يعوّضه عمّا يفقده في دنياه، فليس مـن الحكمة نزع الحلم من مقلتيه وهو أشد ما يكون حاجة إليه.

وأحسّت بالحزن يلوي قلبها ويملؤه وحشة وغربة وضياعا:

المأساة في كل مكان حولها، تشهد عالما ينهار، تشهد مأساة الأرض التي تلفظ أبناءها. لم يعد مـن شيء ثابت على الإطراق، في مهب الريح يتراوح وجود الإنسان، يشعر فجأة أنه لا يقـبض علـى شيء. والسعادة التي كان يظنها قاب قوسين منه تبدو بعيدة مشكوكا فيها. ذكرت فضة وتخيلتها تغـذ في السير لاهثة يائسة، أرملة في شبابها. وقفز خيالها إلى ماجد وأنّـ مخاوفها، ولم تملك دموعها أن تنهمر.

اعتكر الجو وامتلأت السماء بالغيوم وأحاطت بالقمر كأنما تريد حصاره ووضع الغشاوة على عينيه فلا تشهدان الضياع التاريخي الذي بدأ بأكذوبة العودة، كانت بداية الفاجعة، الجرح الذي لم يتوقـف نزفه، أكان القمر يعلم، أكان يكذب، أكان يسخر بالنيام الذين غطّاهم بشعاعه؟.. لقد شارك هو الآخر بما أغدق من طمأنينة كاذبة، ثم بدا وكأنه أحس بتأنيب الضمير فتوارى خلف الغيوم المنـذرة، ولـم يمض الهزيع الأول من الليل حتى كان البرق يشري، والرعد يهدر والأمطار تهطل بغزارة. وأغلقت حنان النافذة حيث وقفت تتأمل الليل الغامض وما لبث أن اشتد الطرق على باب المنزل، ولـم يكـن هناك بد من إلجاء أولئك الذين يلتحفون العراء في تلك الليلة إلى سقف البيت، فاحتلوا الصالة، ومـا لبثوا أن تسللوا إلى الغرف تحت وطأة الحاجة، وقام منهم من أفرز النساء والأطفال على حدة وأشعل مصباحا غازيا.. واحتشدت الدار باللاجئين الذين افترشوا الأرض وحمدوا الله على أن فوق رأسـهم

سقفا يقيهم الريح، والمطر إلى حين. ولم يخطر لهم أن رؤوسهم ستختبر في مقتبل الزمن كل أنـواع السقوف، قبة السماء، والخيام، وسقوف الجوامع والمدارس وهياكل الأبنية.

وكانت عائلة أبي غالب قد انفردت بالغرفة التي ينام فيها الوالد وأغلقت الباب من الـداخل.. ولـم يستطع أحد النوم، ولم ينبس أحد بشفة، بالرغم مما شحنت به نفسه من مشاعر. فكأن حواجز غيـر منظورة قد قامت وارتصّت وألغت كل رغبة في الحديث، فلا يسمع إلا تنهدة أو تثاؤب أو أنين.

ومن حين لآخر كان الباب يطرق لتبديل الحراس فيحدث لجب في الخارج ثم لا يلبـث أن يـسود السكون إلا عويلا من طفل جائع، أو هدهدة من أم تطلب منه أن يلتزم الصمت، وهكذا حتـى كـان الفجر وصحا الجو واستعد القرويون للرحيل، وترددت أم غالب بين عاملي الخوف والحرج ولكنهـا غلبت بإصرار رفيق على إخلاء الدار. وبكت وهي تودع زوجها وابنها، وقبّلت حنان يـدي والـدها ووجنتيه الغائرتين، وقد شعرت أنه وداع قد لا تراه بعده، وتملّكها الانفعال فمرّغـت وجههـا فـي صدره، فعانقها وهمس لها أنه راض عنها، وأنها ستكون موفقة في حياتها، وأنه سيدعو لهـا دائمـا بالسعادة والتوفيق. وبكت أم غالب وأنبها ضميرها، فأخذت طوال الطريق تشتم نفسها وتنحو عليهـا باللائمة، ثم تأخذ في نصح حنان كيف يجب أن تتصرف في بيت عمتها كي لا تكون عرضة للانتقاد.

استقبلتهم أم ماجد بترحاب كبير لا يخلو من بعض الاضطراب والحرج، وكان عناقها لحنان حارا أمويا نسيت معه الفتاة مخاوفها وحذرها، وسألت عن أبي غالب وآلمها أنه آثر البقاء، ولكنها كانـت تعلم عناده فتنهدت ودعت له بالسلامة، لقد كان الخطر الذي زرع في كل مكان قد مهّـد لأم ماجـد احتمال أي وضع، فلا أحد يدري ما هو خير لسلامته وما هو وبال عليه، وإذا كانت تـصبر علـى التحاق ابنها بالثوار فهي أقدر على احتمال مخاوف أقل. وحدّثتهم عن قنبلة أصابت منزل الجيـران وقتلت عائلة بكاملها كانت تتناول عشاءها في الباحة المكشوفة.

- جاءتني سلوى قبل نصف ساعة من الحادث، تطلب وابور الغاز.. إنها طفلة في الـسادسة حلـوة بشرتها ذهبية وعيناها عسليتان ووجهها مورّد.. كانت تخبئ برتقالة في صدرها فتبدو كأنها نتأ لهـا ثدي.

وضحكت معها وقلت لها ما هذا؟.. فتضرج وجهها خجلا.. تصوري يا أم غالـب رأيتهـا حـين اندفعت مع الناس إلى باحة بيتهم، كانت خارجة من باب المطبخ تحمل إبريق الشاي وأصابتها شظية في رأسها وقد فقدت وعيها وعرق ينبض في رقبتها بقوة.. حملها رجال الإسـعاف وخرجـوا بهـا والباقي من أهلها مزق وأشلاء.. سمعت من الجيران أن الأم كانت في المطبخ ونجت، ولكنهـا فـي حالة من الذهول يُخشى معها أن تكون أصيبت بالجنون.. لا بد أنك تعرفينهـا.. كـلا.. اسـتأجروا المنزل بعد ذهابكم من الحي.

ولم تلبث أن غيرت مجرى الحديث، كان استئناسها بهم حقيقيا وتريد أن تتحدث بكل ما يهجس في قلبها وتمحو كل ظل للشك كان قد وقع لهم.. حدثها ماجد برغبته في عقد القران في غيـاب والـده فارتاعت خوف أن ينقم عليها:

- أنا التي اقترحت التأجيل.. أريد أن أفرح به فرحا حقيقيا، ولا أحب المفاجآت.. تعلمين يا أم غالب أنه لا يسعدني شيء مثل أن يتم هذا الأمر بأقرب فرصة ولا تبقى الأمور معلقة.. فحنان أفضل مـن أتمناها عروسا لابني، وهو قد وقع عليها اختياره، وكان أبو ماجد إلى أمد قريب راغبا في أن نعجل زواجهما ولكن يبدو أن الظروف غير ملائمة.. في كل مرة يكون هناك عائق من طرف ما..

واكتست لهجتها بنبرة انزعاج لا تخلو من الودّ:

- حنان، إنني ألومك في أنك لا تعلمين مدى ما يحمله لك ماجد من حب، فلا تجعلي مجالا للشك في قلبك.. إنني أدعو الله في كل صباح أول ما أفتح عيني أن يملأ بيتي من أطفالك.

وعانقتها حنان دون أن تنبس بكلمة.. وقد اختنق صوتها بالانفعال:

- يجب أن تتزوجا حالما تنفرج الحال.. سأعطيك هذه الغرفة فما رأيك؟.. إنها أكثر اتساعا من كـل غرف المنزل. وقربها الحمام والمطبخ. ستشعرين أن المنزل منزلك.. من لدينا غير ماجد؟.. تعـالي معي لأريك ما أعددته لك.. انني أخزن من قطع الثياب ما يجهز ثلاث عرائس.

وضحكت حنان وتبعتها وقامت أم غالب على الأثر، وأخذت أم ماجد تسحب قطعة وراء أخرى من صندوق خشبي مصدّف، وتفردها على كتف حنان وتتأملها. وكان في الصندوق أغطية أسرة مطرزة وقمصان نوم جاهزة وكثير من شغل الإبرة والمطرزات، نبشت كل شيء وذكرت مناسبة حـصولها عليها، شراء كان أو هدية.. هذا من زمن الإضراب الكبير.. كانت البضائع رخيصة، يأتي التجـار الجوالون إلى البيوت ويعرضونها عليك بربع ثمنها.. اليوم الجنيه لم يعد له قيمة، وهذا جاءني به أبو ماجد من مصر، الأقمشة القطنية في مصر ممتازة.

وكانت حنان تبتسم مجاراة لها وقد اعتصرها شعور باللهفة والخوف.. كان ماجد قريبا منها تحـسّ بوجوده إلى الدرجة التي تتسارع لها دقات قلبها.. وسمّرت عيناها فجأة على رسم حفر على غطـاء الصندوق بأداة حادة، كانت عليه الحروف الأولى من اسمه واسمها تتعانقان داخل قلـب، وشـاهدت رسما شبيها به على الحائط وعلى الصفحة الأولى من مجلة، وفي دفتر صغير يكتـب فيـه بعـض الملاحظات كان كأنما يجد راحة في ذلك العبث الصبياني، من ضغط نفسي يعانيه، فهي تلح عليه كما يلح عليها.

وأحست بحب لا نهائي له، ولكل قريب يحبه، وأصبحت خطاها خفيفة مرحة بالرغم مما يحيط بها من أحداث موجعة للقلب.. لقد ارتفعت معنوياتها وعادت إلى حيويتها..

كانت أم غالب من عائلة دمشقية من التجار انقطع ما بينها وبينهم بسبب حدود الانتداب. فالاتصال غدا عسيرا بين فلسطين التي يحكمها الإنكليز وسوريا التي وقعت تحت انتداب الفرنسيين.. فالحواجز من الرقابة وجوازات السفر والجمارك والتكاليف المادية والأنظمة العرفية جعلت السفر شاقا صعبا.. وكانت تلتهف على رسائلهم، فينقلب يومها عيدا وتأخذ بالحديث عن طفولتها يوم كانت ترافق والدها أحيانا بسفره، ويوم كانت البلاد كلها موحدة ينتقل فيها الإنسان كما ينتقل بين غرف داره.. وتـصف دمشق وأشجارها وأنهارها ومنزلها ألأبوي في سوق ساروجة، وبساتين المزرعة التي كانـت علـى قاب قوسين من المنزل.. ومخزن والدها في مدخل سوق الحميدية ومصنع البروكار الحرفي الـذي كان يزود المخزن بأجمل الأقمشة وأدقها، ويوم عرسها والجهاز الثمين الذي جهزها به والدها مـن الأثاث المصدّف الذي اشتهرت به دمشق فكان تحفة للنظر، والمفارش والأغطية المطرزة والثيـاب الطويلة.. عشرون منها تجر الذيول عدا القصيرة والمنامات والزجاجيات وأدوات الزينة التي تـزود بها العروس، وتردف أمام أولادها:

- لم يخسر عليّ شيئا.. كانت النساء بعد أن يشاهدن ما أغدقته على بيته يقلن من يريـد أن يعـيش عيشة هينة ليتجوز شامية.. كان شايف ليلة القدر بس الله عامي قلبه.

كانت أم غالب كاملة بمقاييس عصرها، جميلة سيدة بيت، تحسن الترحاب وتعرف الواجب.. ولكن أبا غالب خيّب أملها بحماقاته حينا ونكساته أخرى، وكثيرا ما راودتها النفس عل هجره والعودة إلى أهلها، ولكنها لا تكاد تفكر في الأمر حتى يهولها، وتتصور في خيالهـا فجيعـة وهـوان العـودة. فالظروف العائلية تتغير، ومنذ أن تخرج الفتاة من بيت أبيها تصبح غريبة عليه لو عـادت.. حتـى أخوها الذي يصغرها بقليل، والذي ألقى بنفسه من أعلى السلم يوم زواجها ومفارقتها البيـت، لوعـة وجزعا كـأنما قد فارقتهم إلى العالم الآخر، لم يعد يراسلها. فالمسافة القصيرة بين بلـدين شـقيقين

متجاورين كانا ذات يوم بلدا واحدا دون حدود يمكن أن يشكل انقطاعا أبديا بين أفراد العائلة الواحدة، في الظروف التي خلّفها المستعمر الذي جعل ديدنه تجزئة البلاد، وقوقعتها وقطع الأواصر وتمزيـق التلاحم الطبيعي فيما بينها. وخلق كل العراقيل لسلخها الدائم ثم تسليمها لشعب غريب يشكل له دولـة حدود تؤمن مصالحه.. وتتذكر أم غالب أن أخاها الأكبر الذي واظب على مراسلتها فخفف عنها جور البعد يهملها بعد سنتين من زواجها، حتى أن الشهور تمر دون رسالة منه بعد أن تزوج وانهمك هـو الآخر بمشكلاته العائلية.. وتتنهد أم غالب وتقول لأولادها:

- أول بختك كرسي تحتك، ثاني بختك داري وقتك، ثالث بختك يا رفيق عالطريق!. ولهذا اختـارت الوضع الثابت للعائلة..

كانت كرامتها تأبى عليها إلا أن تكون عزيزة، وتحتمل الصعوبات بصمت، ولكنها لم تغفر لأبـي غالب أبدا غلطته المشؤومة يوم حاول أن يضارّها، إذ تكونت في أعماقها حساسية تلتهـب بالـسخط وتستشري بالانفعال وسورة الغضب كلما وجدت منه سببا للتذمر مهما ضؤل أو هان.

حقا أصلح غلطته بعد ذلك ونقلها من البيت الأبوي إلى مسكن جديد خاص بها، وحسنت معاملته، وبادلته هي الأخرى حسن العشرة، إلا أن شيئا ما كان قد انكسر بينهما.

كان الأمر يتعلق بعلاقتهما الصميمة، ففي السنوات الأولى لزواجهما سارت الأمور على ما يرام.. فهي تبلغ النشوة معه في أكثر الأحيان حتى كان يوم تحدث فيه الشيخ بشكل عام عن الرجال الـذين يداعبون زوجاتهم، وقال بأن هذا حرام في الإسلام لأنه يؤرّج فيهن الشهوة.. وجاء بمثل كيف أنهـم في مصر كانوا حتى عهد قريب يختنون النساء خوفا من إيقاظ شهواتهن التي لا يعرف لها قـرار.. وقال بأن المداعبة هي للجاريات، وليست للزوجات الشريفات وأمهات الأبناء. وأضاف قائلا: مـاذا يفعل الرجل منا لو جاءه يوم أحس فيه فقدان حيويته أمام زوجته التي تؤججها العادات السيئة؟.. إنه

الملوم لو حملقت عيناها ومال قلبها إلى رجل آخر.. ولا أقول أنها تبلغ حد الخيانة، فنحن والحمد لله نحجب النساء ونراقبهن جيدا، ومثل هذه الأمور لا تحدث بيننا، ولكن يكفي أنهـا بحاجاتهـا غيـر المروية، قد تنكد عيشه!.

نقل أبو غالب الحديث إلى زوجته فظنت أنه حديث عابر، وأن زوجها لا يأخذ كلام الـشيخ علـى علاّته ولا يحمله محمل الجد.. ضحكت حينذاك وسألت زوجها:

- هل الشيخ سعيد في حياته الزوجية؟..

فأجابها بالنفي، وقالت أم غالب:

- في شؤون العلاقات الزوجية لا يستشار الرجل الشقي بل الرجل السعيد.. إنه يختن زوجته ثم يأتي يوم يبحث فيه عن أخرى..

ولكن أبا غالب بدأ يحس بأنه يقترف منكرا كلما حاول أن يحرّر طبيعته حين يضم زوجتـه إليـه، وأخذ يخفف بالتدريج من كل تلك الملاطفات الحلوة التي تجعل الجنس مقبولا من المرأة، وليس عملية قهر واغتصاب. وتقلصت علاقتهما الزوجية وأصبح يأتيها وهي مرهقة، وهي نافرة، وهي في أعماق نومها، أو في تلك الأيام التي يكون فيها احتمال الحمل في أوجه، ويهملها عن عمد في الأيـام التـي تتأجج فيها عاطفتها ولا يكون فيها خوف من حمل، حتى أنه أصبح عصبيا، ويختلق المشاكل ليبعدها عنه.. وكانت أم غالب تتظاهر في البداية بأنها بلغت نشوتها معه، ولكنها كانت تعلم بأنها لن تـستعيد أبدا تلك القدرة الماضية دون مقدمات، ودون استعداد جسدي ونفسي لذلك..

ثم بدأت تلومه، بينها وبين نفسها وتتهمه بالأنانية، وتود لو تفاتحه، ولكنها لا تستطيع أن تكسر ذلك الحاجز.

إن مثل هذه الأمور يجب أن يفهمها الرجل وحده.. وكرامتها لا تسمح لها أن تنبهه إليها.. وأخذت تتذمر من أشياء تافهة، وسيطرت عليها كآبة كانت تكبر يوما بعد يوم.. وأصبحت تخـشاه وتخـشى اللحظة التي يدعوها إليه.. ثم بدأت تخف من زينتها حتى لا تستهويه وإذا ما أحست بـدنوه منهـا واشتعال رغبته بها، أرّجت له شرا لتبعده عنها بضعة أيام، ثم يكون اتصال سريع لا فرح فيـه ولا متعة.. تعطي اللذة ولا تأخذها وتنام على حسرة.. كيف يمكن لشيء تافه أن يـدمر حياتهـا. وفـي وسعها أن تكون صريحة معه وتكشف عن الأذى الذي تلقاه ولكنها لا تفعل.. وفي وسعها أن تداعب نفسها وتريح أعصابها المشدودة ولكنها لا تفعل.. ثم جاء يوم أصبح الاتصال ألما حقيقيا لها، خدشـا لأنوثتها وهدرا لكرامتها وإتلافا لأعصابها.. كانت تتوجع جسميا ونفسيا وتتمنى لو يتركها وشـأنها.. لقد أنجبت الأولاد ولا تريد منهم المزيد. وتعلمت أن تقمع رغباتها، ولا تريد المزيد من هذا العبث.. ولكن ابا غالب كان يظن بأن زوجته تتشكى لأنه مقصر في واجباته المنزلية، ولأنها امرأة لا تصبر على ضائقة زوجها فكان يستدين ويغدق عليها أثوابا لا تجد المناسبات القديمـة لتلبـسها، ويمنيهـا بالوعود الحلوة وبالحلي عندما يباع البرتقال وتتحسن الأوضاع!.

أما اليوم وهي ترى زوجها في وهنه والمرض الذي لازمه، وطابع الهزيمة وانكسار الوجدان اللذان يكسوان وجهه، فإن عاطفة من نوع آخر قد تفجرت فيها.. عاطفة مشبوبة في أن تبذل من نفسها كل ما تستطيع ِلعونه، عاطفة ترقق قلبها فإذا بها سابحة في الدموع، تسكبها في منآى عن الآخرين الذين يلومونها بطريقة ما، بكلمة واخزة، تفلت من اللسان أو نظرة تحمل معنى الاتهام وما كـان غيرهـا ليحس بها، أما هي الحادة الذكاء المرهفة الإحساس فكانت تخترق قلبها كنصل قاطع.. مـن يـدري بمشاعرها؟.. خيّل إليها لحظة ودّعته أنها قد لاتراه أبدا بعدها، وأحسّت بصدمة تخلع فؤادها جزعـا، وغصّت بدمعها.. وتمنت لو تعانقه، لو تغمر وجهه بالقبلات، لو تمسح عنه نظرة الهزيمة وانكـسار

الوجدان، ولكن حاجزا شريرا بقي يعزلهما. نظر إليها نظرة طويلة عاتبة، وكانت عيناهـا ممتلئتـين بالدموع.

ولم تعد تذكر إلا حنانه وإيثاره وكرمه وحبه للأولاد.. لا، يجب أن تجد طريقة فتخرج به من البلد وتعالجه. لتذهب إلى أهلها في دمشق، ولكن من يقنعه؟.. من يقنعه، إنه يرفض القدوم إلى بيت أخته وهو على مسافة ربع ساعة، فكيف يذهب إلى أهلها؟.. وهي نفسها لا تدري أوضـاعهم، وفيمـا إذا كانوا يستقبلونها بالترحاب أو تكون عبئا عليهم..

لقد كانت خاضعة لشروط لا تستطيع إرادتها أن تذللها، وتركت أمرها لله يتصرف بها كيف يشاء.

وكانت كلما مرّ رفيق بها هتفت بلهفة تبدو وكأن فيها مسحة التمثيل والمبالغة، ولكنها كانت صادقة أبلغ الصدق:

- ألم يتحسن؟.. كيف حاله، كيف تتركه؟.. هل ضعف أكثر، هل هزل؟..

فيهز رفيق رأسه دون ان يجيب.

- لنسافر إلى دمشق، أقنعه بالسفر، بع بارودتك ودعنا نسافر.

* * *

كان غالب يشعر بأن الدول العربية تعزل الثورة الفلسطينية وتجعلها متفرجة غير فعّالة ولا منتظمة.. لم يتركوا للمفتي سلطة، وكل فئة من الثوار تعمل بمفردها وتتخبط.. وكان أكثر ما يخيفه أن يضطر يوما إلى تسليم مواقعه إلى الجيش الأردني وقائده البريطاني "جلوب باشا" فحتى الآن لم يصل السلاح ولا يدري ما تخبئه الأيام.

كان بعض الذين تركوا القرية قد وصلوا إلى "مضيق باب الواد" سيرا على الأقدام حيث كانت ترابط مفرزة من جيش الإنقاذ العربي وجماعة من الجهاد المقدس الفلسطيني وبينهم غالب وماجد الذي التحق بهم حديثا. وحين علم الثوار بالخبر وقع عليهم وقوع الصاعقة. كانت تلك هي الحادثة الرابعة التي يهاجم فيها اليهود قرى عزلاء منعزلة بعد مذبحة دير ياسين.. وكان الأسلوب واحدا. تأتي قوتان وتحاصران القرية من جانبيها، وترسل مصفحة عليها مكبر صوت تنادي السكان وتطلب إليهم الاستسلام وإخلاء القرية، وإذا كان بين المهاجمين وأهل القرية حزازات قديمة منذ ثورة 36، 39 أفرزوا الرجال ووضعوهم في شاحنة وقتلوهم على طول الطريق كأنما حدث ذلك في المعارك.. وإذا تلكأ سكان القرية في الخروج، رموا المتفجرات على البيوت وقتلوا من فيها ثم يقومون بعملية نهب للقرية ويتركونها خرابا ويشعلون فيها النيران.

لم يكن حتى ذلك الوقت من العرب من هاجم المستعمرات، إذ كانوا قوى ضاربة تهاجم القوى العسكرية للعدو في أماكن حساسة. ولكن تلك الأفعال العدوانية الجديدة المتلاحقة بعد مذبحة دير ياسين، شحنت قلوب الثوار بحقد لا متناه، وقرروا هم بدورهم مهاجمة المستعمرات، ولم يدروا أنه طعم وُضع بعناية لصيدهم.

فمنذ تأسيس المستعمرات كان يُراعى أن تكون حصونا منيعة ومخافر أمامية مجهـزة أحـسن تجهيز وقادرة على الصمود أمام الهجمات. محاطة بالألغام والأسلاك الشائكة وفيها من الـسلاح والذخائر والتموين ما يكفيها، ومحمية بخطين دفاعيين حفر بينهما خنادق مواصلات.

كان ماجد بين الذين أرادوا ذلك الهجوم بالرغم مما حذر به غالب أن من الأفضل أن لا يجزئوا أنفسهم ويستنزفوها في مهاجمة المستعمرات، بل يتركوا هذا الأمر بعد دخول الجيوش العربيـة. ويبقوا على موقفهم من ضرب قوات العدو المهاجمة، وحصار القدس. كان غالب يـرى أن مـا يقومون به من التفاف هو لفك الحصار عن القدس، وفيها مائة ألف يهودي كادوا يهلكون جوعـا وعطشا بعد أن قطع الثوار عنهم مياه "رأس العين" واستولوا على محطات الضخ في "اللطرون" ولتفتيت القوى المرابطة عند باب الواد.. ولكن ماجد كان يرغب في الابتعاد عن غالب، ويشعر بإحساس خفي ومن الطريقة اللامبالية التي يعامله بها أنه لا يثق به.. وتحت هذا التأثير المـزعج كان ينتقل من نصر إلى نصر في العمليات الصغيرة بمساعدة العناصر الجديـدة التـي دخلـت الثورة، ومع ذلك فإن تلك المعاملة المهينة من جانب غالب لم تتغير. لم يكن يمزح معه كما يفعل مع الآخرين، ولم يكن يوجّه له كلمة نقد أم تحية.. كان خصاما مكتوما أشد إيلاما مـن خـصام سافر، ولهذا كانت رغبته شديدة أن ينفصل، فانضم مع فئة من الجهاد المقدس كانت ترى رأيـه، وإلى آمر مدفعية جيش الإنقاذ للهجوم على المستعمرة التي تأكد لهم أنها المسؤولة عن العدوان.

* * *